مجلة البيان – العدد 3 ربيع الآخر 1407 هـ ديسمبر 1986م

كلمة في المنهج ..عود على بدء

التحرير

اتصل بنا بعض القراء، طالبين أن نعيد نشر افتتاحية العدد الأول "كلمة في المنهج".

ونحن إذ نقدر لهم هذه الثقة، ونشكر منهم هذا الظن الحسن، ولكن لما كان المنهج من أكثر الأمور التي يحتاجها المسلمون في هـذه الأيــام أهـمـيـة، فهو يحتاج إلى مزيد من التفصيل والتوضيح، هذا مع توفر العدد الأول، وإمكانية الرجوع إليه .

وأول ما يحسن بنا أن نقـف عنده طويلاً هو حال الدعوة الإسلامية في هذه الآونة، ويجب أن لا نغفل عن أن هناك نقاط قوة ، ونقاط ضعف في هذا المجال .

فأول نقاط القوة أن الله قد كفل البقاء والخلود لهذا الدين، وضـمـنـه الـقـدرة الكامنة التي تجعله يقارع الخطوب ، ويتصدى للقوى الظاهرة والخفية التي تقف بالمرصاد ، وتحاربه بشتى الوسائل.

ومن نقاط القوة أيضاً أن هذا الدين لا يزال يبعث الخوف والرعب في قلوب أعدائه - على قوتهم ، وضعف حال أتباعه وتفرقهم - مصداقاً لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -:"..ونصرت بالرعب مسيرة شهر.." (متفق عليه) .

وهذا ما يفسر لنا " الهيستيريا " الإعلامية التي يصاب بها أعداء الإسلام كلما أحسوا نبأة تدل على تباشير عودة صادقة إلى حظيرة الدين في أي بلد من بلاد المسلمين.

ومن نقاط القوة أن الأجيال الإسلامية تتكشف لها عيوب الحضارة الأوربية وعوراتها يوماً بعد يوم، وأن فترة الانبهار بها قد ولّت بعد أن كاد يصمنا صراخ دعاتها،ونقيق عبيدها:

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت !!

وهناك نقطة قد تكون نقطة من نقاط القوة، مع أنها نقطة من نقاط الضعف تصيب الدعوة الإسلامية في هذا العصر، وفي كل عصر، ألا وهي النفاق .

فنحن نعلم أن النفاق - كظاهرة - لم يعرف إلا إبان فترة صعود المسلمين نحو القوة، في مجتمع المدينة ، ولم يكن له وجود - فيما نعلم - في فترة الاستضعاف .

وفي هذا الـوقــت الـذي نـرى فـيـه ازديـاد الوعي بين صفوف المسلمين - وخاصة الأجيال الفـتية، والتي يفترض أنها لاتعرف شيئاً من قيم الإسلام وخصائصه، نتيجة للتربية التي تلـقـتها، والأجواء التي عاشت فيها - والعمل

الدائب في سبيل الدعوة، سواء داخل بلدان العالم الإسلامي، أو خارجها ، نرى - مع الأسف الشديد - إلى جانب ذلك ملامح هذه الظاهرة بادية من خلال محاربة بعض العاملين للإسلام لبعضهم الآخر، من غير دليل أو برهان، يجيز لهم هذه الحروب، متنكبين أدلة الكتاب والسنة التي لا تكاد تحصى في الحض على وحدة الصف، والتنفير من التفرق وأسبابه ، ومستمسكين برأي الرجال الذى قد لا يكون بريئاً من الجهل، إن برئ من الهوى وسوء القصد .

وليس من المفترض، ولا من الممكن، أن يتجمع العاملون في مجال الدعوة تحت قيادة رجل واحد ، يصدرون عن أمره في شتى أعمالهم ، فلكل أناس ظروفهم ومشاكلهم التي تحدد نشاطهم ، ولا من المعقول أن يتبنى قوم رفع راية الإسلام في بلد ، فإذا ما سمعوا بأناس آخرين يدعون للإسلام في مكان ما هرعوا إليهم وطالبوهم بالانضواء تحت رايتهم ، وإلا فهم مخربون !!

ولكن المـعـقـول أن يتعاون المسلمون فيما بينهم على تذليل الصعاب، على قدر ما يمكنهم التعاون، وأن يرتـضـوا لأنفـسـهـم ما رضيه لهم الله ورسوله في مجال الأصول: كتاب الله والسنة الثابتة عنه - صلى الله عليه وسلم -، وإجماع الصحابة ، فإذا إختلفوا بعد ذلك، تصل بهم الحال إلى حد التشهير والكيد، بل والاستعانة بأهل الكفر والابتداع على بعضهم أحياناً .

((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَـرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والـرَّسُــولِ إن كُـنـتُـمْ تُـؤْمِـنُـونَ بِاللَّهِ والْـيَـوْمِ الآخِـرِ ذَلِكَ خَـيْـرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً))[النساء: 59] .

فمن نقاط الضعف الرئيسية في الدعوة الإسلامية المعاصرة الاختلافات المنهجية التي تحتاج إلى دراسة ومناقشه بعمق وصبر . ففي ظل الظروف العاصفة التي عاشتها الدعوة في العصر الـحـديـث، تسربـت أمراض كثيرة إلى الفهم الإسلامي، بعضها يمت بصلة إلى مــا ورثـه المـسـلـمـون من عصور توالى عليهم فيها حكم العسف والجور، وبعضها كان نتيجة لمؤثرات غريبة تأثر بها المسلمون بأصناف من الثقافات والمناهج الوافدة، بعيداً عن القرآن والسنة، وبعضها كان ردة فعل لصنوف من الضغط والقهر والوحشية، عومل بها من يرفع كلمة لا إلـه إلا الله في الأرض، فدفـعـهـم ذلك أن يـخـرجـوا على الناس بآراء غريبة غلوا فيها، وحادوا عن جادة الاعتدال، وأفسدوا من حيث أرادوا أن يصلحوا ، مع أن المسلم شأنه التوسط والقصد في الرضا والغضب ، وله في هذا الشأن من كتاب ربه عاصم ومرشد ، فقد قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَـلَـى أَلاَّ تَـعْـدِلُـوا اعْــدِلُـوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلـتَّـقْـوَى واتَّـقُـوا الَّلَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [سورة المائدة:8].

وقد ذم الله الغلو في غير موضع من كتابه الكريم ، فقال تعالى:
((قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً وضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ)) [سورة المائدة: 77] .

وفي تاريخنا أمثلة واضحة شاهدة على عواقب " الغلو" الوبيلة، فإن أثر الخوارج والرافضة وأمثالهم - في بث البلبلة وتفريق الكلمة، وإضاعة الجهود، وتحطيم قوة المسلمين، وذهاب ريحهم ، وإعطاء أسوأ الصور عن تاريخ المسلمين - أثر معروف ومشهور .
وفي هذا العدد ألمحنا إلى ألوان من الحرب المعلنة التي يتعرض لها أهل السنة في مناطق مختلفة من العالم، وهذا من الأسباب التي تفرض عليهم - الآن ، أكثر من أى وقت مضى - الـتـعـاون، والألـفـة، ووحـدة الـكـلـمـة، ومعرفة ما يراد بهم، وتبيّن طريقهم من خلال الأخـطـار المحـدقـة. وهـذا الأمـر يـنـبـغي أن يؤخذ بجدية بالغة، وأن يكون العمل على تحقيقه من خلال منهج محدد لا يخضع للعواطف والأهواء .
ونحن - بدورنا - نلتزم بجماعة أهل السنة، لأنها الجماعة الأم، التي لا يسع أحداً من المسلمين الخروج عليها، أو مناصبتها العداء. ومن أباح لنفسه ذلك كان مرتداً، أو مبتدعاً .
فالذي ينكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، ويجحد أمراً ثابتاً في الشرع، وينتقص الإسلام وأحكامه الثابتة ، يكون مرتداً ، والذي يزعم - مثلاً - أن العقل مقدم على النقل ، يكون مبتدعاً ، مع أنه من أهل القبلة .
والتزامنا بمنهج أهل السنة يعصمنا من التخبط والترنح ذات اليمين وذات الشمال، لأنه المنهج القائم على أصول، لها من كتاب الله، وسنة رسوله أساس راسخ، ولها من استقراء حوادث تاريخ المسلمين ، وعلاقاتهم ببعضهم ، وعلاقاتهم بأعدائهم - قديماً وحديثاً - أدلة تنير لهم مسلكهم عندما تشتبه السبل وتتشابك الموارد والمصادر .
وإننا نورد مثالاً ، هو ثمرة لتطبيق منهج أهل السنة في النظر إلى الأمور ، فمعلوم أن لأهل السنة موقفاً من الدعوات التي ترفع " اللافتات" الإسلامية ، للوصول إلى أهداف لا علاقة لها بالإسلام ، هذه "اللافتات" التي ينطبق عليها قول علي -رضي الله عنه-:" كلمة حق يراد بها باطل"، مثل موقفهم من الرافضة وأشباههم من أصحاب الدعوات الباطنية.
فعندما خدع الكثير من البسطاء بشعارات طرحها فريق من هؤلاء ، واستطاعوا أن يزيحوا بشـعـاراتهم وثـورتـهـم طـاغـية من طغاة هذا القرن، كان للعقلاء - وقليل ما هم - موقفهم النابع من فهمهم لمنهج أهل السنة، وعندما كانوا ينبهون كثيراً من هؤلاء الذين غلو في المضي وراء هذا السراب، وانطقوا - دون تحفظ - يهللون ويكبرون لشمس الإسلام التي بزغت من خلف هضاب وجبال فارس ! ظانين أنهم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بسط ظل الإسلام على ديار المسلمين من جديد بفضل "آيات الله" !
عندما كان يقال لهؤلاء: يا قوم ! اربعوا على أنفسكم، وتريثوا، فالعجلة مهلكة، وإن كنتم تـجـهـلـون موقـف علمائـنا من أمـثـال هـؤلاء ودعـواتهم، وتجهلون، أو تتجاهلون مواقفهم المشينة من المسلمين على مدار التاريخ ، وتظنون أن

هؤلاء قد تبرؤوا من مواقف أجدادهم - وهم والله، لا يزالون عاكفين عليها، يفتخرون بها. وإذا كانت بعض المواقف الاستعراضية لهؤلاء، مثل ذكر فلسطين ، وما يشبه ذلك من ذكر "الصهيونية" و"قوى الاستكبار العالمي" قد جعل على أعينكم غشاوة ، فلم تعد تبصر الحقائق ، فاعلموا أن هؤلاء سوف يشتمون اليهود في النهار ، ويتآمرون معهم في الليل ، وسوف يبتسمون في أوجه الفلسطينيين ، في الوقت الذي يعدون العدة ليطعنوهم من الخلف ، وإذا كنتم لا تمتلكون الرؤية التي ينبغي أن يتسلح بها المسلم ، فيقيس ما لم يقع على ما وقع ، ويقارن الأشباه بنظائرها ، ويعرف المجهول بالمعلوم ، ويهتدي بتجارب الماضي لتحديد خطواته في المستقبل ، حتى لا يكون سيره فيه خبط عشواء ، أو قفزاً في الهواء . .. إذا كنتم في شغل عن كل ذلك ، فلا أقل من التريث والصبر قليلاً ، فإن المستقبل القريب ، فيه مصداق ما نقول ، ونحن لا ندعي علم الغيب ، ولكن المنهج الصحيح يعطي الإنسان الرؤية التي تساعده على معرفة ما لم يكن بما قد كان .

ها نحن الآن بعد سنوات قليلة من عمر الإسلام الراجع من خلف هضاب خراسان ! فماذا نرى ؟! صورة كالحة يحجم القلم عن رسم خطوطها ، فالشيطان الأكبر يمد "الثورة الرسالية" بالأسلحة ، واليهود الذين يتصدى لهم "المحرومون" في جنوب لبنان يعملون على نقل هذه الأسلحة إلى من يتاجرون بسبابهم "والردح" عليهم ، ثم ، ويالهول الاكتشاف!! يكتشف سَدَنة "الثورة الرسالية" فجأة ! أن الفلسطينيين الموجودين في لبنان هم الذين قتلوا الحسين في كربلاء ، ولابد من الثأر منهم ! ومن يدري ؟! فربما لم يـكـن هذا اكـتـشـافـاً مفاجئاً، بل وحياً تلقوه عن "صاحب الزمان" عـجـل الله فـرجــه وقــرب مخرجه! وأن الفلسطينيين، لذلك يستحقون القصف، والتقـتيل، والمحاصرة، والتجويع، والموت صبراً، ثم التشريد من جديد .

وكل ذلك يرتكب حتى تكون الطريق ممهدة نحو فلسطين!

لا نريد أن نسترسل وراء هذه الصورة المرعبة من الصور التي تحيط بنا ، بل نريد أن نرفع عقيرتنا بالبحث عن مخرج ، وكفانا لهاث وراء السراب اللامع تارة من هنا ، وتارة من هناك .

ونعتقد أن الطريق الصحيح لمواجهة الأوضاع الحرجة، التي تحيط بنا من كل جانب، هو منهج أهل السنة المتمثل بالكتاب والسنة وما أجمع عليه الصحابة. وليس أحد من الناس، أياً كان ، جديراً بأن يؤخذ كلامه مأخذ التسليم ، ماعدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والـصـدق مـع الله في حـمـل دعـوتـه، وتبلـيـغ منهجه، ثم الصدق مع الناس، في إخلاص النصح ووضوح المقصد من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة .

ربنا اجعلنا من الذين هُدوا إلى الطيب من القول ، وهُدوا إلى صراط الحميد .

((ومَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)) [الطلاق:3]

التجديد في الإسلام
(3)

شروط المجدِّد:

نستطيع أن نصف المجدِّد بأنه يعيش في قمة عالية ، وأمته تعيش في سفحٍ هابط وهو يعمل لانتشال هذه الأمة من سفحها لتحاول الصعود إلى القمة .
فهو مثل أعلى في صحة العلم ووفرته واتساعه ، وفي صدق العمل وإخلاصه ، ورجل كهذا أقل ما يوصف فيه أنه (سالمٌ) من علل الأمة وأمراضها ، ناج من الآفات والانحرافات التي تنخر فيها ، (متحلٍّ) بالصفات التي يدعو إليها .
ولقد تحدثنا قبل قليل عن مجالات التجديد ، ومنها يمكن معرفة صفة المجدِّد وشرطه . ولكن بعض الذين كتبوا في تعـيـين المجـدديـن من المصنـفـين دأبـوا على ذكر أسماء بعض العلماء الذين لا يُسَلَّم لهم كونهم من المجددين . بل بـلـغ الـحـال أن عد بعـضـهـم أحد الخلفاء من المجددين، في حين عده البعض الآخر من البلايا التي ابتليت بها الأمة على رأس المائتين والتي يبعث المجددون لمحو آثارها ومقاومتها!
ودأب آخرون على سرد أسماء علـمـاء مذهبهم عبر القرون من المشتغلين بفروع الفقه وعدهم - هم - المجددون .
وما ذلك إلا لـعـدم وجود الضابط الواضح الذي يوزن به الرجال فيطيش أقوام، ويـرجـح آخرون .
لذلك فنحن بحاجة إلى وضع بعض الضوابط والاحترازات المفيدة في هذا الباب .
ونحن بـحـاجــة إلـيـهــا -أيضاً - من ناحية علمية بحيث نستطيع - في واقعنا - تمييز الأصوات المحقة من الأصوات المبطلة، ولا يلتبس علينا هذا بذاك.
ولـذا فـسـوف نقـتـصر عـلـى مـا نرى أنه ضـروري في هـذا المجال غير متعرضين للصفات الأخرى التي يسهل عدُّها والحديث عنها:
أ- فالتجديد مهمة "الفرقة الناجية" ، وهم "أهل السنة والجماعة ":
والفرقة الناجية هي الـسـائـرة على نهج الرسل - عليهم الصلاة والسلام - في الاعتقاد وفي غيره ، وهي فرقة من ثــلاث وسبعين فرقة ، وقد سبق بيان بعض خصائصها وصفاتها قبل صفحات ، ومن هذا المـنـطـلـق نقول: ليس للفرق التي تشايعت على الباطل ، وتآلفت علي الهوى ، من الـتـجـديــد نصيب ، وكيف وهي تهدم الدين وتشوِّه حقيقته وتلبسه ثوباً غير ثوبه؟.
إن التجديد لابدّ أن ينطلق من وضوح في الاعتقاد: في الإيمان، والأسماء والصفات، والولاء والبراء ، والعبادة ، والتشريع ، بحيث يكون مذهب أهل السنة والجماعة في جميع ذلك هو المنطلق الأساسي للتجديد .

والدين عندنا ليس عاطفة هوجاء غامضة تقول: لا تفرقوا الصف ، ولا تكفروا المسلمين !
الدين عندنا ليس تصـفـيقـاً لكل من هـتـف باسم الإسلام، ولو كان يرفع راية الإسلام بيد، ويسعى للإجهاز عليه باليد الأخرى .
الدين عندنا وحي منزل مضبوط محفوظ يحتكم إليه في تقويم الناس ، ومن اضطرب في يده هذا الميزان ضاع في التيه البعيد !
ومن الغريب أن أقواماً في زماننا عدّوا الشيعة الرافضة مجددين للإسلام ، ولا ندرى ما هذا الإسلام الذي جدَّدوا ؟! .
وأغرب من ذلك أن يُدخلهم عالم مشهور كابن الأثير في عداد المجددين ، فيعدُّ أصحاب المذاهب الأربعة والإمامية ! (1) .
وما أجمل ما ردّ عليه صاحب عون المعبود حيث قال:
"ولا شبهة في أن عدهما من المجددين خطأ فاحش ، وغلط بيّن ، لأن علماء الشيعة وإن وصـلـوا إلى مـرتـبـة الاجـتـهـاد، وبلغوا أقصى المراتب من أنواع العلوم، واشتهروا غاية الاشتهار، لكنهم لا يـسـتـأهـلـون المجددية ! كيف وهم يخربون الدين فكيف يجددونه؟ ويميتون السنن فكيف يحيونها؟ ويروجون البدع فكيف يمحونها ؟ وليسوا إلا من الضالين المبطلين الجاهلين ، وجلّ صناعتهم التحريف والانتحال والتأويل لا تجديد الدين ، ولا احياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة " (2) وليست المسألة مقصورة على الرافضة فحسب، فالصوفية الذين اعتنقوا الفلسفات اليونانية، ومارسوا الطقوس الهندية الوثنية، وقتلوا روح الجهاد ، لا يقلّون خطراً عنهم .
وأصـحـاب الـمـدرسـة الـكـلامية في أبواب الاعتقاد ممن عارضوا نصوص الكتاب والسنة بخيالات وشبهات عقلية فاسدة هم حجر عثرة في طريق التجديد .
وهذا المجدِّد الأول عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يقول:"مـن جـعـل ديـنـه غـرضـاً للخصومات أكثر التحول " (3) .
وهذا مجدد آخر وهو الشافعي -رحمه الله- يقول:" لأن يبتلى الله المرء بكل ذنب نهى الله عنه - ماعدا الشرك - خير له من الكلام " (4) .
وأقوال الأئمة المجددين في ذلك مأثورة مشهورة .
وهكذا يبقى التجديد محصوراً في أفراد الطائفة المنصورة والفرقة الناجية التي سلمت من البدع المحدثة في الدين وخاصة البدع الاعتقادية .
ب - ولابدّ من العلم الشرعي الصحيح ، بل اشترط بعضهم " الاجتهاد " كشرط أساسي للمجدد(5). قال السيوطي:

بأنه في رأس كل مائة ... يبعث ربنا لهذي الأمة
مناً عليها -عالم يجددُ ... دين الهدى لأنه مجتهدُ

وقال ضمن الشروط:

يـشـار بالـعلم إلي مـقـامـه ... وينـصـر السـنـة في كـلامه

وأن يكون جامعاً لكل فن وأن يعم علمهُ أهل الزمن(6)
واشتراط الاجتهاد ليس عليه دليل .
أما كونه طويل الباع في العلوم، واسع الخطو في جميعها فهذا ضرورة للتجديد، لأن من مهمات التجديد إحياء العلم الشرعي، ونشر العمل بالسنة، وتعليم الناس دينهم ، والذين يتصدون لذلك لابد أن يكونوا على جانب من العلم متين، إلى جانب معرفة أوضاع الحياة المدنية وما يناسبها .
ج - ومن لفظ " التجديد " يظهر جلياً أن المجدِّد صاحب إرادة في التغيير فاعلة وثابة، فهو ينطلق بالأمة من واقعها المرفوض المنحرف صُعُداً في طريق الصلاح والنجاح، أما أولئك الذين يرتضون الواقع السيء ويباركونه ، ويرون أنه من أزهى عصور الأمة فهيهات أن يكونوا من التجديد في شيء .
ولذلك سمى الرسول -صلى الله عليه وسلم- الفئة المتمسكة بـ "الطائفة المنصورة"، وفي هذا إشارة إلى أنها تجاهد في سبيل الله ، وتناضل عن السنن ، وتقارع المبتدعة الضالين فيعينها الله وينصرها ، ولذلك فهي "منصورة".
وأشار الرسول ،صلى الله عليه وسلم، إلى هذا المعنى بقوله "ظاهرين" ، وفي بعض الألفاظ:
"لعدوهم قاهرين" فهو ظاهر غلبة بالحجة والبرهان ، وظهور قهرٍ للأعداء ومكابدة لهم .
وفي رواية ثالثة: "لا يضرهم من خالفهم ولامن خذلهم إلا ما يصيبهم من اللأواء" .
ومن مجموع هذه الروايات ندرك أن التجديد:
أولاً : إدراك واعٍ لحال هذه الأمة وما تعانيه .
وثانياً: إرادة مصممة على التغيير .
وثالثاً: إمضاء لهذه الإرادة وتحقيق عملي لها .
إن اللأواء والجهد لا يصيب إلا من جاهد، وطريق التجديد والإحياء ليس مفروشاً بالورود بل هو طريق البذل والمحاولة والتصميم .
((والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ))[العنكبوت آية: 69].

إلمامة تاريخية بالحركة التجديدية:

حين بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى هذه الدنيا كانت الحياة قد أصابها الفساد والانحراف في جميع مجالاتها ، وكانت الدعوات السماوية السابقة في حالة احتضار وكرب شديد على أيدي أتباعها الذين لعبوا بها وشوهوها ، وأساؤوا إليها أكثر من إساءة أعدائها المعلنين .
فكانت بعثته - صلى الله عليه وسلم - انتصاراً للرسالات السماوية ، وإنقاذاً للجماعة البشرية ، وحرباً على جميع ألوان الشرك والجاهلية .

وبدأ - صلى الله عليه وسلم - بدعوته فرداً واحداً غريباً في عالم مظلم مضطرب يسوده قانون الغاب وتتعاوى فيه الذئاب ، ويفترس القوي فيه الضعيف ، فكيف يتحرك فردٌ أعزل في مثل هذه الحال ؟ كيف يتحرك وهو يقف ضد هذا العالم كله ؟ في عقيدته وشريعته ومنهجه؟ والمبعوث برسالة السماء لا يمكن أن يقف مهما كانت العقبات .. ومن هنا بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلك البداية المحرقة ، وليتصور كلٌ منا .. تلك اللحظات التي شعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيها بأنه النبي المختار من عند الله لإنقاذ البشرية .. أي مشاعر كانت تتحرك في قلبه العظيم -عليه الصلاة والسلام- ؟!

رجل واحد في مكة في وسط هذه الصحراء الملتهبة الممتدة يحمل هم تغيير العالم كله من أقصاه إلى أقصاه ! يا للهمم القعساء !

وبدأت تلك الرحلة الطويلة المضنية بخطوة واحدة ، فأسلم أبو بكر وعلي وخديجة وبلال وزيد بن حارثة فكان الواحد منهم يعد أحياناً ربع الإسلام أو خمس الإسلام!

ولم تمض فترة وجيزة حتى أُمر - صلى الله عليه وسلم - بمخاطبة قريش علناً بالدعوة ، وخاصة عشيرته الأقربين وهنا تأخذ الدعوة خطاً جديداً لا يصبر عليه إلا أشداء الرجال ، فيجهر - صلى الله عليه وسلم - بدعوته أمام الملأ ، ومن هذا الموقف بدأت الحرب الضارية تشن ضده وضد أتباعه: حربٌ سلاحها كل سـلاح ، سـلاح الـدعـايـة، سـلاح التهديد، سلاح الضرب سلاح التجويع، سلاح المقاطعة، سلاح السخرية اللاذعة، وبدأت هـذه الـقـلـة تـمـارس الصبر الجميل أمام حرب شعواء لا يهدأ لها أوار ولا يقرُّ لها قرار.

ولكن الحق لابد أن يجد آذاناً صاغية حتى في أحط البيئات وأفسد المجتمعات . . فها هي دعوة الإسلام المحصورة في بعض بيوتات مكة تستقطب فرداً من هنا وفرداً من هناك مـمـن لـم تـصـرفـهـم الدعايات المضللة المغرضة حتى تكاثر الأتباع وتجاوزت الدعوة نطاق مـكـة بصورةٍ فردية .

ومع تكاثر الأتباع كان القرشيون يشعرون بالخطر الحقيقي من وراء هذه الدعوة فيزدادون في عدوانهم وطغيانهم ويصممون على محاولة إيقاف هذا المد وحصره في أضيق نطاق .

حتى كـان إسـلام الأنصار وبيعة العقبة الأولى ثم الثانية ، فكان هذا أول انطلاق حقيقي خارج مكة ، وبـه أخـذت الـدعـوة مدى أوسع وانعتقت من سلطة مكة فلم يعد بإمكانها القضاء عليها .

ولكنها كانت تعمل للحيلولة دون قائد هذه الدعوة - عليه صلوات الله وسلامه أبداً أبداً - وبين أن يلحق بهؤلاء المدنيين بحيث يشكل القوة التي تخافها قريش وتخشاها، إذا انطلق ليمارس دعوته بدون قيود ولا معوقاتٍ تذكر .

ولـذلـك ائـتـمــرت عليه لتمنع هجرته حتى خططت لقتله والخلاص منه، وهذا يدل على حدة شعور القرشيين بالخطر المحدق ، وإلا فلم يكن قتله -عليه السلام- بالأمر اليسير ، وربما كان يؤدي إلى حرب أهلية طاحنة .
ولكن الله تعالى كان يحفظه - صلى الله عليه وسلم - وقد كتب له أن يؤدي دوره في المدينة المنورة الزهراء ، فيسبق -عليه الصلاة والسلام- تخطيطهم - ويخرج ومعه بعض أتباعه . . وبهذا يفلت الزمام من قريش وتصبح معركتها معه - صلى الله عليه وسلم - في ميادين القتال فحسب.
وفي المدينة ينشط المسلمون في نشر الإسلام بين أهلها نشاطاً كبيراً ، ويشيع وجوده بينهم - صلى الله عليه وسلم - جواً قوياً من الثقة والاطمئنان والحماس ، حتى يدخل في الإسلام عدد كبير من الأوس والخزرج بعضهم من علية القوم وكبرائهم .
وتبدأ المؤسسات اللازمة تتكون شيئاً فشيئاً: المسجد وهو مدرسة للتوجيه والتربية ثم الجيش .. وهكذا .. خطوات جبارة حقاً .. وكيف لاتكون كذلك وهي نقلة نوعية بل قفزة من مرحلة التضييق والاضطهاد في مكة والتي كان المسلمون غير مأذونين فيها برد العدوان ولا قــادريــن، إلـى مـرحـلة بناء الدولة بأجهزتها الكبيرة مع الاستعداد للجهاد ومنازلة الأعداء المعتدين .
وظلت الدولة الفتية تنازل أعداءها بجندها الـعـقـائـديـيـن فتجهز عليهم واحداً بعد الآخر وتختط لنفسها طريقاً سالكة عبر المصاعب والمحن والآلام الجسام .
ولم يقبض الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - حتى أقر عينه بقيام دولة الإسلام ، وإعزاز أهله ، فكمل الدين ، وتمت النعمة ، وتفيأ الناس ظل الإيمان الوريف .
وحين نزلت هذه الآية: ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً)) [سورة المائدة: 3] بكى عمر بن الخطاب ! فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: ما يبكيك ؟ قال: أبكانى أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل ، فإنه لم يكمل شيءٍ إلا نقص ! فقال: صدقت (7) .
ولقد كان الصحابة يعلمون أن من سنة الله أن هذا الوضع الذي يعيشونه في حياته - صلى الله عليه وسلم - لن يدوم ، فكانوا يتطلعون إلى معرفة ما يكون بعد ، وإلى الموقف السليم الذى يواجهون به التغيرات المخوفة المرتقبة ، حتى قال حذيفة -رضى الله عنه -: كان الناس يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: نعم . . . الحديث (8) .
ولا تظن أن ثمت شكاً في أن لوفاة الرسول -عليه الصلاة والسلام- الأثر العظيم فى حياة المسلمين فقد كان أول خلاف خطير حصل بين المسلمين

في قضية كبرى هو اختلافهم بعد وفاته بقليل على الخليفة من بعده يوم السقيفة .
هذا - وكان موته - عليه صلوات الله وسلامه بعد نزول آية المائدة بإحدى وثمانين يوماً ! وقد كان لوفاة الخليفتين من بعده أثر آخر يدل عليه حديث حذيفة -رضي الله عنه- حين سأله عمر عن الفتنة التي تموج كموج البحر ، فقال له: مالك ولها يا أمير المؤمنين ؟ إن بينك وبينها باباً مغلقاً! قال : فيكسر الباب أو يفتح ؟ قال: بل يكسر . قال : ذلك أحرى ألا يغلق أبداً ! قال قائل لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة ؛ إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط قال : فهبنا أن نسأل حذيفة: من الباب ، فقلنا لمسروق: سله ، فسأله ، فقال: عمر(9).
ثم كان لانتهاء فترة الراشدين الأربعة أثر ثالث يدل عليه قوله - صلى الله عليه وسلم: "الخلافة في أمتي ثلاثون عاماً ، ثم يكون بعد ذلك الملك" .
قال سفينة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "أمسك خلافة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- سنتين ، وخلافة عمر -رضيَّ الله عنه- عشر سنين ، وخلافة عثمان -رضي الله عنه- اثني عشر سنة ، وخلافة على -رضي الله- عنه ست سنين"(10) .
وكان لانخرام جيل الصحابة ، ثم لانخرام جيل التابعين ، ثم لانخرام جيل تابعي التابعين آثاراً أخرى يدل عليها قوله - صلى الله عليه وسلم - : "خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . . الحديث" (11) .
وإلى هنا تنتهي القرون المفضلة التي شهد النبي - صلى الله عليه وسلم - بخيريتها وفضلها ، وصار ما سارت عليه من العقائد والخلائق بل والاحكام هو الهدي الصحيح الذي لا يسع مؤمناً من المؤمنين أن يخالف عنه ، وصار لزاماً على كل مؤمن أن يحبهم بحب الله ورسوله ويحب ما كانوا عليه من أمر الدين ، ولا يرى الصلاح إلا في الرجوع إلى ما كانوا عليه ، فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها - كما قال الإمام مالك -رحمه الله- .
ثم يظل الخط العام للأمة يسير تدريجياً باتجاه الضعف والنقص والبعد عما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما قال أنس -رضى الله عنه-: "لا يأتيكم زمان إلا والذي بعده شرٌ منه ، حتى تلقوا ربكم ، سمعته عن نبيكم - صلى الله عليه وسلم-" (12) .
فلا تزال الأمة كلما بعد عهدها بنبيها في استئخار عن منهجه .
هذا من حيث الجملة والعموم ، ولكنه لا يعني الاطّراد الحتمى في كل عصر بالنسبة للذي قبله ، بل من الثابت شرعاً وواقعاً أن ثمة عصوراً تكون خيراً من التي قبلها وأفضل وأصدق مثلٍ لذلك زمان المهدي ثم عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام- ، ومثله عهد عمر بن العزيز -رحمه الله- .

ولذلك لا يزال الله يمن على هذه الأمة بتصديق موعود نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيها ببعثة المجددين الذين يحيون ما اندرس من أمر الدين ، ويعيدون إلى الأمة حياتها الحقيقية بإعادتها إلى نهج الإسلام الصحيح .

فحين تمر فرقة على الأمة يصيبها في دينها ما يصيبها فيخرج المجدِّد ليعيدها إلى حالٍ قريب من الحال الأول ، ثم تبدأ آثار المجدِّد في الزوال والتلاشي حتى لا يأتي القرن الآخر إلا والأمة قد بلغت من الضَعة والضعف أشد مما بلغت قبل حركة التجديد الأولى ، فيأتي المجدِّد فيعيد الأمة إلى حال قريب من حالها في عهد المجدِّد الأول .. وهكذا يتلاءم خط سير الأمة المنحدر مع خط التجديد والإحياء التصاعدي .

ولا يكاد المجدِّد التالي يكون خيراً من سابقه إلا في حالات نادرة ، كما في ظهور المهدي ونزول عيسى - عليهما السلام - ، فإنهما يجددان الدين أي تجديد .

مع أن الأمة كلما امتد بها الزمن وزاد انحرافها كانت حاجتها إلى المجدِّد الأقوى أشدُّ وآكد ، ولهذا رجحنا فيما مضى أن التجديد مهمة الطائفة الناجية المنصورة ، وليس مهمة فرد بعينه ، وأنه إن جاز أن يقال في مجدد القرن الأول أنه عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- ، فإن ذلك لا يجوز في غيره، مع قناعتنا التامة بظهور آحادٍ من الناس يختصهم الله بمزيد فضل من عنده ، فيكون لهم من التجديد أوفي نصيب .

وفي الصفحات التالية نعرض لحركات التجديد التاريخية البارزة لتكون أنموذجاً يحتذى للدعاة الصادقين المتطلعين إلى تجديد الدين لهذه الأمة .

أ- الحركة التجديدية الأولى ..
[في عهد عمر بن عبد العزيز] 99-101هـ

يشهد المتتبع لكلام عامة العلماء في شأن المجددين أن هناك ما يشبه الإجماع على اعتبار عمر بن عبد العزيز هو مجدد القرن الأول .

وكان أول من أطلق ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري ، ثم تبعه الإمام أحمد حتى لم يكد أحدٌ يخالف في ذلك .

ونـحـن نــسـلـم بــذلك ، ولكننا نقول: ما كان لعمر بن عبد العزيز أن يقوم بهذه الحركة الواسعة المتعددة الـجـوانــب لولا وجود عددٍ كبير من أجلاء التابعين وساداتهم وهم كانوا ساعده الأيمن في تنفيذ مشاريعه التجديدية العظيمة .

ولكي ندرك قدر الإصلاح والتجديد الذي أحدثه عمر نرسم الخطوط العريضة للانحراف الذي عانته الأمة ، والذي كانت حركة عمر الإصلاحية تغييراً له ، فنقول:

إن قيام الدولة الإسلامية الأموية على يد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- جاء في وقت كان المسلمون أحوج ما يكونون فيه إلى

وحدة الصف وجمع الكلمة ، فجمعهم الله على معاوية بعد تنازل الحسن في "عام الجماعة" وكان ذلك سنة 40 هـ .

وليس يعنينا الآن "تـقـويـم" الدولة من حيث الجملة ، بل الذي نقصده هو الإشارة إلى أن مجيئها بعد عصر الـخـلفاء الراشدين له أثر كبير في نظرة المسلمين آنذاك إليها حيث كان الخطأ الذي نراه نحن اليوم عادياً ، يعد عندهم شيئاً كبيراً .. وهذا ملحوظ لديهم حتى في تقويمهم للأفراد ، وكلامهم فيه مأثور مشهور .

عمر بن عبد العزيز يرشح للخلافة:

لما عزم سليمان على كتابة كتاب بولاية العهد من بعده استشار بعض كبار التابعين فأشاروا عليه بعمر بن عبد العزيز ، فسماه ، ثم سمى بعده يزيد بن عبد الملك .

وكان عمر بن عبد العزيز رجـــلاً عـاقـــلاً ديناً صيناً ولم يعرف قبل ذلك بمزيد فضل عن نظرائه وأشباهه ولذلك اختاره هؤلاء الـتـابـعـــون ورشحوه ، فلما قرئ كتاب سليمان بعد موته كان عمر في آخر الناس فلما سمع اسمه اسـف واسـتـرجع - في حين استرجع غيره لفوات الخلافة - وتباطأ في القيام ، فقام إليه ناس فأخذوا بعضديه وذهبوا به إلى المنبر ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أيها الناس! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورةٍ من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم !" فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فلِ أمرنا باليمن والبركة (13).

فكان هذا أول عمل تجديدي قام به عمر حيث أعفي الناس من الملك العضوض وأعاد الأمر شــورى، وحـيـن اخـتـاره الـنـاس وألزموه بتولي الخلافة ناء به ثقل المسؤولية حتى "عُقِرَ به"(14) وضاق بها ذرعاً ، وبان الهم على محياه ، فقال له أهل مواليه:

يا أمير المؤمنين ! كـأنـك مهتم ؟ فقال: لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممت ، إنه ليس أحدُ مـن أمـــة محـمـد في مشرق ولا مغرب إلا له قِبَلي حقٌ علي أداؤه إليه، غير كاتب إليَّ فيه، ولا طالبه مني(15) .

ثـم بــدأ عـمـر في عمل الاصلاحات بجدٍ يتناسب مع هذا الشعور بالمسؤولية ، فتنحى عن المواكب الـفـخـمـة التي كانت تعمل للخلفاء من قبل ، واسترد الامتيازات التي وصلت إلى أيـدي بـعـض قـرابــتـــه، وقد بدأ بزوجته فاطمة فخيرها بين نفسه وبين حليّها ومتاعها فاختارته هو ، فأخذ الحلي ووضعه في بيت المال .

ثـم بـدأ حركة تغيير واسـعـــة في المسؤوليات والولايات فولى الفقهاء والمشهود لهم بالصلاح وأبــعـد من يُزَنُّ بأدنى شبهة ، ثم تعاهد هؤلاء الولاة بالنصح والتوجيه والرقابة والمتابعة، ووســع على الـنـاس بإلغاء الضرائب ،

وتوزيع الثروة بالعدل وتنظيم إيراد الزكاة وصرفها حتى لم يوجد من يأخذ الزكاة ، غنىً وورعاً .
ثم عمل على تـزكـيـة نفوس الناس وأخلاقهم وبيئاتهم من الأمراض والنقائص الاجتماعية والـخـلـقية، وإعانتهم على السمّو والارتفاع بشتى الوسائل ، فكانت مجالسه عامرة بالعلم والتربية وذكـر الـموت ، ومن ثم - تفشى ذلك في الناس ، ولم يأل العلماء جهداً في نشر العلم وإحياء السنة ، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام .
وحارب عمر المفاسد الموروثة عمن قبله ، فقضى على العصبية المقيتة، ومنع سبّ أحدٍ من السالفين أو لعنه كـائـنـاً من كان ، وحارب البدع المحدثة والآراء الضالة كبدعة القدرية والخوارج والمرجئة والمعتزلة .
وأنصف أهل الذمة وردّ إليهم حقوقهم ، ووضع الجزية عمن أسلم منهم.
وعمل على تدوين السنة ، فكلف بعض العلماء بكتابة حديث الرسول -صلى الله عـلــيـه وسلم- ، وآثار الصحابة من بعده ، فكانت أول حركة تدوين منظمة ترعاها الــدولـــة .. وكان لهذه الإصلاحات آثار عميقة في المجتمع الإسلامي ، بل وفي غيره من المجتمعات ، حتى ليصح أن يكون عمر هو رجل الدنيا وسيدها وأعظم مصلحٍ جاء إليها بعد الـخـلـفــاء الراشدين .
وقد كان عمر يخطط لجعل الخلافة شوريةً من بعده ، أو الوصية بها إلى كفئها الـمـسـتـحق لـهـــا، ولـذلك قال عند موته: "لو كان لي من الأمر شيءٌ ما عدوت به القاسم ابن محمد وصاحب الأعـــوص اسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص" (وكان عابداً منقطعاً قد اعتزل فنزل الأعوص!) فبلغ ذلك القاسم فترحم عليه ثم قال: إن القاسم ليضعف عن أهيله فكيف يقوم بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟! (16) .
وبمثل هذا الــدور الجـبـــار الضخم استحق عمر مجددية القرن الأول ، وإن كان بعضهم يضيف إليه آخرين من التابعين كالقاسم من محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، والحسن البصري ، والزهري ، وغيرهم (17) .
* يتبع *

الهوامش :

1 - جامع الأصول 11 /324
2 - عون المعبود 4/ 180 .
3 - شرح أصول الاعتقاد للالكائي 1/128 .
4 - شرح أصول الاعتقاد 1/146 .
5 - التنبئة 17 ب ، 18 أ .
6-التنبئة 18 ب .
7 - تفسير الطبري، ج 9 ، ص 519 ، رقم الأثر 11083، تحقيق: شاكر.

8 - أخرجه البخاري في: 61 كتاب المناقب ، 15 باب علامات النبوة في الإسلام ، رقم 3606. ج 6 ص 615 . وفي 92 كتاب الفقه ، 11 باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ رقم 7084 ج 13 ص 35 .
ومسلم في 33 كتاب الامارة ، 13 باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، رقم 51 ، 52 (1847) ج 3 ، ص 75 . .
وأحمد في المسند ج5 ، ص 404 مع اختلاف يسير .
9 - رواه البخاري في: 9 كتاب المواقيت ، 4 باب الصلاة كفارة ، رقم 525 ، ج 2 ص 8،24.
ورواه مسلم في: 1 كتاب الإيمان ، 65 باب إن الإسلام بدأ غريباً ، رقم 231 ، ج 1 ، ص 28 1 ، 52 كتاب الفتن ، 7 باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، رقم 26 ، ج 4 ، ص2218 .
رواه الترمذي في: 34 كتاب الفتن ، 71 باب رقم 2258 ، ج4 ص 524.
ورواه ابن ماجه في: 36 كتاب الفتن ، 9 باب ما يكون من الفتن ، رقم3955 ، ج2 ، ص1305 ورواه أحمد 5/386 ، 401 ، 405 .
10- رواه الإمام أحمد في مسنده ، ج 5 ، ص220 ، 221 ، وبنحوه أبو داود في: 34 كتاب السنة 9 باب في الخلفاء ، رقم 4646 ، 4647 ، ج 5 ، ص 36 ، والترمذي في: 34 كتاب الفتن 48 باب ما جاء في الخلافة ، رقم 2226 ، ج 4 ، ص 503 .
11- رواه البخارى في 81 ، كتاب الرقاق ، 7 باب ما يحذر من زهرة الدنيا.. رقم 6428 ، 6429 ، ج 11، ص 4 .
ورواه مسلم في: 44 فضائل الصحابة ، 52 باب فضل الصحابة ثم الذين يولونهم . . رقم 210 - 216 (2533) ج 4 ، ص 1962.
ورواه أبو داود في: 34 كتاب السنة ، 10 باب في فضائل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، رقم 4657 ج5 ، ص 44 .
ورواه الترمذي في: 34 كتاب الفتن ، 45 باب ما جاء في القرن الثالث ، رقم 2221 ، 2222 ، ج 4 ، ص 500 .
ورواه النسائي في المجتبى ، كتاب الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر ، ج 7 ، ص 17 ورواه ابن ماجه في: 13 كتاب الأحكام ، 27 باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ، رقم 2362 ج 2 ، ص 791 ، وهو عنده أيضاً برقم 2363 ، بلفظ: "احفظوني في أصحابي ثم الذين يلونهم..".
ورواه أحمد في المسند: 378/1 ، 417 ، 434 ، 438 ، 442 . 2/228 ، 410 ، 479 . 4/267 ، 276 ، 277 ، 278 ، 426 ، 427 ، 436 ، 440 ، 5/350.
وجاء في مواضع عن عدد من الصحابة هم: عمران بن حصين ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة وأبو هريرة ، وعمر بن الخطاب ، والنعمان بن بشير ، وبريدة الأسلمي ، رضي الله عنهم أجمعين.

12 - رواه البخاري في: 92 كتاب الفتن ، 6 باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شرٌ منه ، رقم 7068 ج 13،ص 20 .
13 - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص 65 ، دار الكتب العلمية .
14 - أي عجز عن القيام ، وانظر: سيرة عمر لابن الجوزي ، ص 64 .
15 - سيرة عمر ، ص 65 .
16 - طبقات ابن سعد ، ج 7 ، ص 344 ، دار صادر .
17 - جامع الأصول ، ج 11 ، 322 ، وانظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (المخطوط) ص .
18- سبق تخريج الحديث من حيث أصله ، وهذه الرواية عند ابن ماجه .
19 - فتح الباري ، ج 7 ، ص 6 .
20 - ابن سماعة هذا كان صلى مرة بالإمام أحمد في السجن والدم يسيل من جسده ! فقال له: صليت والدم يسيل في ثوبك ! فقال أحمد: قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً !.
21 - مقدمة المسند ، ج1 ، ص98 (هامش) ..
22 -حلية الأولياء لأبي نعيم ، ج 9 ، ص 166 ، دار الكتاب العربي .
23 - الحلية ، ج 9 ، ص 170 .
24 -أيضاً ، ص 171 .
25 -ترجمة الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام (مقدمة المسند) ج1، ص65 .
26 - تقدمة الجرح والتعديل ، ج 1 ، ص 308 ، دار الكتب العلمية .
27- البداية والنهاية ، ج 10 ، ص387 ، ط مكتبة الأصمعى بالرياض .
28- انظر ترجمة الإمام أحمد في: تقدمة الجرح والتعديل ، ج 1 ، ص 292 - 314، وحلية الأولياء ج 9 ، ص 161 - 234 ، ومقدمة المسند ، ج 1 ، ص 58 - 133 ، وفي آخره ذكر مصادر أخرى للترجمة ، وهي مهمة فلتراجع .

أطفال الحضارة المعاصرة
... نحو الهاوية

إن ظاهرة الاعتداءات التي يتعرض لها الأطفال في دولٍ الحضارة المعاصرة تكاد تملأ سـمـع العالم وبصره منذ سنوات، وخصوصاً من يقدر له أن يعيش في مثل هذه الدول المتحضرة !! .. هذه الاعتداءات تشمل الضرب الجسمي الوحشي، التعذيب بالآلات الحادة، إطــفــاء السجائر بأجسام الأطفال الرقيقة، السجن في أماكن مظلمة، ربط الطفل في زاوية من زوايا البيت لفترات قد تتجاوز الأشهر ، بل أحياناً السنوات !! هذا عدا الترك والإهمال بكل معانيه [الصحية-التغذية - التعليم والتربية .. الخ]، والإهانات العاطفية، بيع الأطفال مقابل مبلغ من المال ، الطرد والإبعاد عن المنزل في سن مبكرة جداً .. إلى آخر هذه الأساليب الوحشية المفزعة..

وقـد يـدهـش المـرء عـنـد سـمـاع مـثـل هذه الحالات المذهلة من التعذيب، وقد يصف هذه المجـتـمـعـات بالوحشية والبهيمية .. لكنه سرعان ما يتضح له خطأ هذا الوصف والتشبيه إذا علم أن ما يتعرض له أطفال الحضارة المعاصرة من أساليب التعذيب والـتفـنـن فيها إنما يـحـدث مـن أقـرب المقـربين منهم، ممن يقوم على رعايتهم وتربيتهم، بل - وفي كثير من الـحـالات -مـن آبـائهم وأمهاتهم .. نعم إن الوحوش الكاسرة لتعطف على صغارها بدافع الـفـطـرة الـتـي فـطـرهـا الله عليها، والرحمة التي أودعها في قلوبها تجاه صغارها .. بل وأحياناً تجاه أبناء جنسها .

فليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عياناً

إن هذه الوحوش لتدفع عن صغارها كل سوء ، وتكدح من أجل تأمين الرزق لها ، وتوفر لها المكان الآمن ، وهي مع ذلك مستعدة للتضحية بحياتها من أجل أن يبقى صغارها ، وهذا الأمر لا يحتاج إلى دليل ولا إلى كثير من الإيضاح .. ولـكـن مـا لا تـتـقـبـلـه الـعـقـول الـسـلـيـمـة، ولا الـفـطـر القويمة أن يقوم من كرمه الله بالعقل والفهم والإدراك بمثل هذه الأسـالـيـب الـوحشـية - مع التحفظ على هذه الكلمة - ويصب صنوف العذاب على من؟ على أطفاله وفلذات كبده .. ولو كان الأمر متعلقاً بأطفال غيره أو بأطفال من دول العالم الثالث لهان الأمر، خصوصاً إذا تذكرنا العقلية الاستعمارية التي يتمتع بها كل من الغرب الرأسمالي ، والشرق الملحد ، والتي لا تزال كثير من الشعوب تعاني منها أو من آثارها .

ولنأخذ أعرق هذه المجتمعات مدنية وتحضراً ، كشريحة من شرائح المجتمع الغربي المتحضر نجري عليها هذا البحث - أعني المجتمع الإنجليزي - فالحكومة البريطانية تستعد الآن لإصدار "كتاب أبيض" يتعلق بمشروع قانون حماية الطفولة المزمع طرحه على مجلس العموم ، وقد وعدت الحكومة بأن تأخذ في الاعتبار اقتراحات وصفت بأنها "دراماتيكية مثيرة" لأنها تعطي الطفل الحق في أن يطلب قضائياً الانفصال عن أبويه إذا تعرض للإساءة من جانبهما [الشرق الأوسط 4/11/1986] .

ولا تظن - أخي القارئ - أن حضارة القرن العشرين المبدعة عجزت أن تبتكر أساليب جديدة أكثر تقدماً - نحو الهاوية - في هذا المجال .. ويحق لك أن تسأل : وأي جريمة بقيت لم ترتكب في حق هؤلاء الأطفال الأبرياء؟. لكن إن كنت ممن تابع الصحافة الغربية، والبريطانية منها على وجه أخص ، في الآونة الأخيرة فإنك لابد أن تكون أدركت ما أرمي إليه .. هذا الأسلوب الجديد هو ما يسمى "بالاعتداء الجنسي على الأطفال" .. فلقد أنشئ خط هاتفي جديد في مدينة ليدز البريطانية لمساعدة الأطفال الذين تعرضوا لمثل هذا النوع من الاعتداء ، ولقد تلقت محطة تلفزيون B.B.C البريطانية ما يتراوح بين 30 - 50 ألف مكالمة هاتفية خلال الاثنتي عشرة ساعة الأولى التي فُتحت فيها الخطوط الهاتفية للأطفال .. لكن ألفي مكالمة فقط تمكنت المحطة من

الإجابة عليها .. ورغم أن أكثرهم كانوا من البالغين الذين أبدوا استعدادهم للمساعدة في هذا المجال إلا أن 306 ممن خابروا المحطة كانوا من الأطفال الذين يشكون من وقوعهم تحت هذه المأساة ، وقد أحيل عشرة منهم إلى أقسام الرعاية الاجتماعية ، أو المكاتب المدعومة من المتطوعين أو الشرطة [الأوبزيرفر 2/11/1986] .

ويتبين حجم هذه المشكلة ، والتي أثيرت بمناسبة إنشاء هذا الخط الهاتفي من خلال تصريح الدكتورة "جلاسر Dr Glaser والتي تعمل في إحدى مستشفيات لندن حيث تقول :

"إن الوحدة التابعة لها والمختصة بالأطفال المعتدى عليهم ، والتي تخدم إدارة صحية واحدة فقط .. إن هذه الوحدة تتلقى الآن 80 حالة جديدة سنوياً والتي قد تكون مؤشراً لوجود 16 ألف حالة جديدة سنوياً في إنجلترا أو مقاطعة ويلز" .

"إن أقسام الرعاية الاجتماعية غير قادرة على استيعاب الأعداد الكبيرة من الأطفال المعتدى عليهم ، وإن بيوت رعاية الأطفال والتي كان مقرراً إغلاقها ستبقى مفتوحة الآن ، في مدينة ليدز .. لقد اكتشف الأطباء مثل هذه الاعتداءات منذ أربع سنوات ، فلقد زاد عدد هذه الحالات من عشر حالات في عام 83 م إلى 400 حالة في هذه السنة 86" [الاندبندنت البريطانية 3/11/86] .

يقول الدكتور "كوستوفر هوبز" والذي يقود مجموعة مختصة بهذا النوع من الاعتداء على الأطفال في المستشفي التابع لجامعة ليدز :

"لقد دربنا أساتذة المدارس والحضانات ورجال الشرطة والزائرين الصحيين للتعرف على مؤشرات الاعتداء عند الأطفال ، ولقد أنشأنا أعداداً كبيرة من بيوت الحضانة ، وسنبحث عن عدد كبير من العوائل كي تأخذ هؤلاء الأطفال .. ولكن المشكلة التي تواجهنا أن هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى عوائل ذات خبرات في التعامل مع مثل هذه الحالات لأن لديهم كثيراً من المشاكل الاجتماعية والنفسية ، حيث يتصرفون تصرفاتٍ غير ملائمة" [الاندبندنت 3/11/86].

كما ذكر ناطق باسم المنظمة المذكورة بتاريخ 13/7/86 "إن أكثر من 300 طفل في مدينة ليدز يتلقون علاجاً نفسياً بعد أن تعرضوا لاعتداءات من بعض أفراد عوائلهم أو من بالغين آخرين" .

ولنر الآن ما موقف القانون البريطاني من هذه المشكلة ، وما مدى مساهمته في حلها ، والقضاء عليها ؟

يقول »ميرسي هوكر Maurice Hawker« مدير الخدمات الاجتماعية في مجلس مقاطعة اسكس :

"إن المشكلة تكمن في أن القانون لا يحمي هؤلاء الأطفال .. حيث إننا نخسر كثيراً من الحالات عندما نحاول أخذ هؤلاء الأطفال للعناية بهم ، وذلك بسبب

عبء الإثباتات الهرقلية (القاسية) .. وعلى عموم المجتمع أن يأخذ حقوق الأطفال في حساباته" [الأوبزيرفر 12/11/86] .
ويقول الدكتور هوبز : »إنه من الصعوبة بمكان اتخاذ أي إجراء ضد الشخص المغتصب ؛ إلا إذا اعترف بذلك .. حتى لو كان التشخيص الطبي يثبت هذا الشيء ، إن القانون أصبح حصانة للمغتصب .. والشرطة تعرف ذلك وقليل جداً من الحالات ترسل إلى المحكمة« [الأندبندنت 3/11/86].
هذا هو إسهام القانون في حل المشكلة .. حماية المجرم .. ووضع العراقيل أمام المصلحين والعقلاء .. والنتيجة زيادة الجريمة والانحطاط الخلقي والاجتماعي ، وتفشي الأمراض ، والمزيد من النفقات الاقتصادية لعلاج ذلك كله ..
وهذه المشكلة لم تنشأ من فراغ ، بل إنها جاءت نتيجة انحراف موجه في مناهج التعليم ، ووسائل الإعلام ، وثالثة الأثافي تساهل القانون في القضاء على الجريمة .
وإن لوسائل الإعلام حصة الأسد من إشاعة مثل هذه الجرائم فما يُعرض في قنوات التلفاز من أفلام ولقطات تحرض على الجريمة الجنسية ، وما يعرض في أشرطة الفيديو والمسارح والمجلات التي تعرض وتباع على مسمع ومرأى بل وبحماية من القانون والسلطات .. كل هذا مما يزيد معدل هذه الجريمة .. وليست الخمور والمخدرات من الساحة ببعيدة في مثل هذه الجرائم .. إذاً ، كل شيء في بلدان الحضارة المعاصرة يحرض على الجريمة وبصفة قانونية رسمية يحارب القانون نفسه من يحارب الجريمة أو يحاول أن يقف في طريقها .. إنه القانون الوضعي القائم على مثل نظرية فرويد الحيوانية .. إنه البعد عن منهج الله .. إنه الضياع ..
وإلى أبناء أمتنا نسوق هذه الأمثلة التي تعكس الوجه المظلم للحضارة المعاصرة مستهدفين أن يزداد أبناء هذه الأمة تمسكاً بما لديهم من منهج حكيم ومن شرع إلهي - أنزله الله الحكيم الخبير بما يُصلح عباده - فهو الملجأ والعاصم من أمثال هذه الجرائم . وصدق الله القائل : ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)) [سورة الأنبياء 107] .
إن القوانين الوضعية الجاهلية قد ثبت فشلها وعجزها عن محاربة الجريمة بأنواعها ، فهي - كالصانع الأخرق - كلما عالجت أمراً أفسدت أموراً كثيرة بل إن هذه القوانين مهما بلغت من الحكمة في التقنين والحدة والشدة في التنفيذ والعقوبة فالجريمة باقية في النفوس .
انه الإسلام .. والإسلام وحده الذي يعالج النفوس قبل أن يحد الحدود والعقوبات .. إنه المنهج الرباني .
فيامن وليتَ أمراً من أمور التعليم والتربية أو وسيلة من وسائل التوجيه في عالمنا الإسلامي: اتق الله فيما وليت ، ولتكن هذه الأمثلة ماثلة أمامك ، وأنت تضع الخطط والبرامج ، ولا يغرنّك خبراء التعليم والإعلام في العالم الغربي أو

الشرقي ، فالنتيجة كما ترى مزعجة مفزعة ولو كان عندهم خبرة شاملة كاملة لاستفادت منها بلادهم .
ولقد خاطبنا ربنا قائلاً : ((وسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ)) [سورة إبراهيم 45] والعاقل من اتعظ بغيره .

أوقاف المسلمين .. آخر الحصون

هذا مثل آت من فلسطين، وهو في سياقه هكذا - ليس مفاجئاً لأحد، لا لخصوم الإسلام، ولا لأنصاره، يوضح باختصار ودون تعقيد - كيف يجهد اليهود، ويحرصون على القضاء على كل المقومات التي تمثل أدلة على هوية فلسطين الأصلية، ويضعون الخطط التي تمحو كل البصمات التي تدل على انتماء سكان البلاد الشرعيين .
فقد زار مفتي فلسطين مصر أواخر شهر 10/1986 ليعرض على علماء الأزهر، ويتدارس معهم أوضاع المسلمين في فلسطين المحتلة، والصعوبات والمشاكل الناجمة عن سيطرة اليهود المباشرة على أوقافهم ، وكثير من مساجدهم ، والتدخل السافر في كل أمر مما يخص إدارة شؤونهم الدينية ، حتى البسيط منها ، وإمكانية عرض هذه القضايا في المؤتمرات الدولية ، وفي الهيئات الإسلامية العالمية .
وقد ذكر مفتي فلسطين أن المسلمين لم يتمكنوا إلى الآن من استعادة أوقافهم الإسلامية ، ومساجدهم المصادرة منذ عام 1948 ، والتي حولت إلى متاحف !! وذكر ، كذلك ، أن كثيراً من مقابر المسلمين لا تزال تنبش وتقام عليها الملاهي الليلية ، والمستوطنات ، وأن المسلمين -وحدهم من بين جميع الطوائف الموجودة في فلسطين - هم الذين تخضع شؤونهم الدينية للإدارة اليهودية ، ما جل منها ، وما صغر ؛ حتى لو كان تعيين "مؤذن" أو "فراش" ، في حين أن للطوائف اليهودية مجلساً مستقلاً عن الدولة هو "المجلس الرباني" وللطوائف المسيحية المختلفة مجالسها التي تتولى الإشراف على أنشطتها ، دون تدخل ، أو رقابة من أحد .
وذكر من المساجد التي هدمت في فلسطين مساجد: المزيدل، ومعلومة وصفورية، ولوبيا، وحطين، وتمرين وشجرة، وعين حوض، والطيرة، وجبع، والطنطورة، وكفر لام .
وكذلك أغلقت المدارس الإسلامية في حيفا ، والنصارية ، وعكا ، ويافا .
وألغيت أيضاً جميع الوظائف الحيوية للمسلمين، مثل: مفتش المحاكم العام ومراقبة الدعوة والإرشاد.

وبيّن أن أساليب المماطلة والتواطؤ التي تسلكها المحكمة العليا فيما يخص الدعاوي التي يقـيـمـهـا الـمـسـلـمـون، مـطـالـبـة بحقوقهم، وكيف تدفع هذه الدعاوي وترد بحجة عدم الاختصاص..
وهناك دلالات لابد من الإشارة إليها وردت في هذه الشهادة لمفتي فلسطين :

1- أول هذه الدلالات :

التدخل السافر في شؤون المسلمين، مهما صغرت ، وعدم إتاحة الفرصة لهم ، ليقوموا بأي نوع من التجمع، وعلى أي أساس كان والحرص على ضرب كل ما يجعلهم يشعرون بكيان عقائدي يربطهم، ويستمدون منه الأمل في مستقبل أفضل .
ولا يصرفنك عن هذه الحقيقة ما يتشدق به أعداء الإسلام من كلمات مثل: حقوق الإنسان، وحرية العقيدة والديموقراطية .. فكأن هذه المصطلحات وضعت ليفهم منها أن الإنسان المسلم مستثنى منها بداهة .
فالإنسان المسلم - عند أغلب الناس غير المسلمين - لم يصل - ولن يصل ، مادام مسلماً - إلى مرتبة الإنسانية أبداً !
والإنسان المسلم ليس حراً، لا في فهم عقيدته، ولا في تطبيقها، وإذا ما حاول ذلك، فإنه يُرمى عن قوس واحدة، من كل الجهات، حتى ولو كان بين هذه الجهات ما بينها من الخلافات والعداء، فإنها تتفق على حربه والكيد له، يرمى بشتى أنواع التهم من تخلف، وتطرف، وتعصب وسير بالناس إلى الوراء، ومحاولة فرض أفكاره على الناس، وإرهابهم فكرياً - مع أنه هو الذي تطبق عليه هذه المفهومات ، ويرهب فكرياً ، ويغتال جسدياً ، ويسلب أبسط حقوقه ألا وهو حق الدفاع عن النفس .. ماذا أقول ؟! بل حق الهمس بالشكوى والتوجع والأنين من هول ما يلاقي في سبيل قوله : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .
وقد طلب كاتب مسلم من بعض الناس أن يعرف له الديموقراطية، فأجاب هذا:
إن الديموقراطية هي: حكم الشعب بالشعب. فأجابه الكاتب المسلم: لقد نسيـت اسـتـثـنـاءً مكملاً لهذا التعريف، اتفق عليه الشرق والغرب، ولعله محذوف لـلـعـلـم به - حتى صار ذكره أو حذفه سواء - وهو أن الديموقراطية حكم الشعب بالشعب، إلا أن يكون هذا الشعب مسلماً !
فحتى هذه الديموقراطية ، التي هي وليدة مجتمعات وبيئات لها خلفيات ثقافية مغايرة للإسلام في أهدافه ووسائله ؛ أصبحت حقاً مشاعاً لكل بني البشر ، واستثني المسلمون بقسوة من حق المشاركة فيها ، لا لشيء ، إلا لأنها تعطيهم الحق في أن يقولوا : هذا نريده ، وهذا نرفضه .

2- الدلالة الثانية :

مـأسـاة الأوقاف الإسلامية، ي أغلب بقاع العالم الإسلامي، فقد سلُطِّ على هذه الأوقاف سيفان ماضيان، بل ذئبان جائعان، يفتكان فتكاً ذريعاً في هذه الأوقاف المكشوفة !

أول هذين الذئبين :

كثير من متولِّي شؤون الأوقاف ، والقائمين على تدبيرها في القديم والحديث ، ممن فسدت ذممهم ، وخربت نفوسهم ، وباعوا دينهم بِعَرَضٍ من الدنيا قليل ، فكم من مال نهب ، وكم من بيوت موقوفة أخفيت أو أتلفت صكوكها وحججها ، ليستولي عليها من يسكنها ، أو تباع بثمن بخس لمن لا يستحق ، وكم من مدارس تحولت إلى بيوت ، ومساجد تحولت إلى متاجر وأربطة تحولت إلى أملاك شخصية وإلى ما شاء المسؤولون عنها ، وكم من فقراء معدمين أثروا من أموال الأوقاف ، واختالوا ، واستطالوا على الناس ، ففسدوا وأفسدوا .. وكم .. وكم .. مما يطول ذكره ، ويؤلم تعداده .

أما الذئب الثاني، فهو ذئب قديم حديث أيضاً ، ولكنه كان في القديم يعدو على هذه الأوقاف بين الفينة والفينة ، ولا يعدم من يصرخ به أحياناً ، أو ينهره ، فيرجع متخفياً موتوراً يتحين غفلة من الحراس لينزو ثانية ، لعله ينشب أظفاره بصيد جديد .

أما الآن .. فقد أمن الهجوم متخفياً بعد أن آلت إليه وراثة حقوق المسلمين المعنوية والعينية ، وأصبح هو الذي يبت في أمر تدبير شؤون هذه الأوقاف ، وصرفها ، وتعيين من يحق له أن يطلع على أسرارها ، ويكون له حق القوامة عليها .

وهكذا ، بعد أن أصبح للأوقاف وزارات ، صار طبيعياً أن يكون من بين المسؤولين عنها أناس لادين لهم أصلاً فالمسلم الذي خربت ذمته ، وانهارت نفسه لمطمع مادي ، قد يشعر في حين من الأحيان - بذنبه ، فيتوب ، ويكفِّر أو يعمل على إصلاح هذا العيب بالعمل الصحيح في مجال آخر .

أما من لادين له فالأمر عنده لا يتعلق بنهمة يسدها بمطمع مادي ، ولا بنفس شرهة يحرص على تلبية رغباتها ، وإنما المشكلة عنده انحراف عقائدي يريه الأمر أمر أموال لو صرفت إلى مصارفها المحددة لها بأمانة ، ووجهت حسب رغبة واقفيها المسلمين باستقلالية وتجرد ، لجعلت المسلمين أعزة في ديارهم ، يتمتعون باستقلالية في اتخاذ قراراتهم ، وجعلت علماءهم لا يتكففون من يذلونهم ويسومونهم ويسومون دينهم الخسف والهوان ، ولجعلت المسلمين يعرفون مواطئ أقدامهم على خريطة العالم ، وذلك بتعليم أولادهم دينهم وعقيدتهم ، وتنشئهم التنشئة التي تتفق وإرثهم الثقافي والحضاري ، بدل تلقينهم ما يقطعهم عن جذورهم ، ويجعلهم مشوَّهي الفكر ، فاقدي أهم واكرم ما يمتاز به الإنسان .

ولهذا ، فإن هذا وأمثاله ، ممن وسدت إليهم هذه الأمانة التي ليسوا أهلاً لها ، يجهدون في أن يسيروا في أموال الأوقاف سيرة سلفهم "محمد علي باشا" في أوقاف مصر ، »الذي أخذ ما كان للمساجد من الرزق ، وأبدلها بشيء من النقد يسمى [فائض رزنامة] لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها ، وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو 4 آلاف جنيه في السنة .. وقصارى أمره (أي : محمد علي) في الدين ، أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع (الملابس) أو إجلاسهم على الموائد لينفي من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك ، وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه«(1) .

3- الدلالة الثالثة :

ظاهرة تحويل مساجد المسلمين إلى متاحف ، فقد كان المعتاد أن تتحول المساجد إلى كنائس في ظل السيطرة النصرانية على كثير من بلاد المسلمين وكانت الرموز الإسلامية في هذه المساجد تقتلع أو تطمس ، كما حصل في الأندلس ، أما في ظل الظروف الحالية ، عندما عزف أهل الكنائس عن ارتياد كنائسهم ، وعندما وقع كثير من المسلمين تحت الملاحدة وعندما لا يوجد الجمهور الذي يملأ فراغ هذه المساجد ، فيما إذا حولت إلى كُنُسٍ ومعابد لليهود - كما في حالة فلسطين - يُلجأ إلى تحويل هذه المساجد إلى متاحف ، لئلا يتعرض العاملون على ذلك لاستنكار بعض الجهات الدولية ، مثل "اليونيسكو" وغيرها ، فيما لو هدوا هذه المساجد . وليجتذبوا بواسطتها السائحين ، بعد أن يكونوا قد عطلوا دورها الذي قامت من أجله ، وجعلوها مثابة للمتبطلين والفارغين الذين يقصدون هذه الأماكن بقصد الترويح والفرجة .

4- الظاهرة الرابعة :

وهي ذات معنى يؤسف له ، فكم من الجهات - في أرجاء العالم الإسلامي الواسعة - نستطيع أن نشير إلى ما يصنع بأوقاف المسلين فيها - غير فلسطين المحتلة - ؟
فإذا كنا نستطيع أن نرفع أصواتنا مستنكرين منددين بما يفعل بحقوق الإنسان على أيدي اليهود في فلسطين ؛ فهل نستطيع أن نفضح الممارسات المشابهة في بقاع وبلاد أخرى ؟ مع أن هذه الممارسات إن لم تكن أشد خبثاً وأكثر التواءً فهي لا تقل بحال عما يفعله اليهود من اغتصاب ، ومماطلة ، وتخطيط دائب من أجل تجريد المسلمين من كل شيء له فاعلية ..

1- من المقال الشهير الذي كتبه الشيخ محمد عبده عام 1905 ، بمناسبة مرور مائة سنة على تولي محمد علي وأسرته حكم مصر .

الخصائص الأخلاقية والسلوكية لأهل السنة والجماعة

اختيار: محمد المصري

تمهيد:

هـذه مـخـتـارات مـمـا كـتـبه شـيـخ الإسـلام ابن تيمية، توضح بعض خصائص أهل السنة والجماعة، والمميزات الاعتقادية، والأخلاقية، والسلوكية لهم، اخـتـيرت بعناية، وعـلّـق عليها بتعليقات ربطت بين فقراتها، وألقت بعض الضوء على مناسباتها ومواطن الاستشهاد بها .

وسنعرض للمواصفات العامة لأهل السنة والجماعة في حلقة قادمة إن شاء الله .

التحرير

أهل السنة والجماعة هم حملة ميراث النبوة في جانبيها العلمي والعملي، ولا شك أن أبرز الجوانب العملية في الهدي النبوي هو الجانب الأخلاقي ، ولذلك فإن أخلاق النبوة - من الرحمة ومحبة الخير للناس واحتمال أذاهم ، والصبر على دعوتهم إلى آخر ذلك .. - هي المنبع الذي يستقي منه أهل السنة خصائصهم السلوكية والأخلاقية ، والتي لا تقل أهمية - في مـنـظـور الـحـق - عن ميراث العلم والهدي الذي اختص به الله هذه الفرقة الناجية بفضله ورحمته .

(الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعثه الله تعالى هدىً ورحمةً للعالمين ، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية . ، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس ، والرحمة لهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم واحتماله فبعثه بالعلم والكرم والحلم: عليم هادٍ ، كريم محسن ، حليم صفوح .

فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب ، ويدلّها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض ، وهذا نعت الرسل كلهم وهذه سبيل من اتبعه ، وكذلك نعت أمته بقوله:((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)) ، قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس: تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة ، فيجاهدون - يبذلون أنفسهم وأموالهم - لمنفعة الخلق وصلاحهم ، وهم يكرهون ذلك لجهلهم ، كما قال أحمد في خطبته:

" الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم قتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائهٍ قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم!. . إلى آخر كلامه " .

وهو -سبحانه وتعالى- يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها ، وهو يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات ، وقد قيل أيضاً: وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات ، ويحب السماحة ولو بكف من التمرات) ج 16 ص 313-317 .
وأهل السنة والجماعة في أخلاقهم وسلوكهم يأتمون بالكتاب والسنة ، سواء في علاقتهم مع بعضهم ، أو مع غيرهم .
(يأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمرِّ القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا"، ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمّن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق ، وينهون عن سفاسفها ، وكل ما يقولونه من هذا أو غيره ، فإنّما هم فيه متَّبعون للكتاب والسنة) ج 3 ، ص 158 .
وأهــل الــســنــة لـذلك هـم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا هو الأصل الأول والقاعدة العظيمة التي جـعلـتهم خير أمة أخرجت للناس ، ولكنهم يقومون بذلك على ما توجبه الشريعة ، فيلتزمون في الوقت نفسه أملاً آخر وقاعدة أخرى عظيمة ، هي الحفاظ على الجماعة، وتأليف القلوب واجتماع الكلمة ، ونبذ التفرق والاختلاف .
(يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المـنـكـر ، على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحجج والـجـهـاد، والجـمـع والأعــيــاد مــع الأمراء - أبرارًا كانوا أم فجارًا - ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمّة، ويعتقدون معنى قوله -صلى الله عليه وسلم -: "المؤمـن لـلـمـؤمـن كـالـبـنـيــان يــشـد بـعـضـه بعضاً" وشبّك بين أصابعه - صلى الله عليه وسلم - وقوله -صلى الله عليه وسلم-:"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الـجـسـد الـواحــد إذا اشـتـكـى مـنـه عـضـو تـداعــى له سائر الجسد بالحمى والسهر") ج3،ص158.
(ويجب على أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوموا على عامتهم ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله، وينهونهم عمّا نهى الله عنه ورسوله - صلى الله عليه وسلم -) ج 3 ، ص 423 .
(ويزن جميع ما خاض الـنـاس فـيـه ، من أقـوال وأعـمــال ، في الأصول والفروع الباطنة والـظـاهــرة بــكـتاب الله وسنّة رسوله غير متبعين لهوى: من عادة أو مذهب أو طريقة أو رئـاســة أو سـلـف، ولا متبعين لظن: من حديث ضعيف أو قياس فاسد -سواء كان قياس شمول ، أو قياس تمثيل - أو

تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله ، فإنّ الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى) ج 12 ص476.
فأهل السنة والجماعة ، إذن ، ولاؤهم الأول للحق وحده ، ومن هذا المنطلق فإنهم ينظرون إلـى كـل فــرد ، أو طائفة ، أو تجمع ، على هذا الأساس وحده ، وليس على أساس من التعصب الجاهلي للقبيلة، أو المدينة، أو المذهب، أو الطريقة، أو التجمع، أو الزعامة .
(وليس لأحد أن يعلق الحمد والذم والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة ، والصلاة واللعن ، بغير الأسماء التي علّق الله بها ذلك، مثل: أسماء القبائل، والمدائن، والمذاهب، والطرائق الـمـضـافـة إلى الأئمة والمشايخ ، ونحو ذلك مما يراد به التعريف ، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته ، من أي صنف كان . ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان . ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه ، ومن البغض بحسب فجوره ، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي ، كما يقوله الخوارج والمعتزلة ، ولا يجعل الأنبياء، و الصديقون، والشهداء، و الصالحون ، بمنزلة الفساق في الإيمان والدين، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة) ج 28 ، ص 227- 229 .
وأهل السنة والجماعة لذلك يوالي بعضهم بعضًا ، ولاءً عامًا -بغض النظر عن انتماءاتهم المختلفة لحزب، أو جماعة، أو اتجاه، أو اجتهاد معين - بل الأصل أن يكونوا جميعًا، يدًا واحدةً ، ويعذر بعضهم بعضًا ، ولا يسارعون إلى اتهام أو تضليل بعضهم بعضًا.
(الــواجـب أن يقدّم من قدّمه الله ورسوله ، ويؤخّر من أخّره الله ورسوله ويحب ما أحبه الله ورسـولـه ، ويبـغـض ما أبغضه الله ورسوله، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأن يـرضـى بـمـا رضـي بـه الله ورسوله، وأن يكون المسلمون يدًا واحدةً، فكيف إذا بلغ الأمر بـبـعـض الـنـاس إلى أن يضلل غـيـره ويكفره، وقد يكون الصواب معه، وهو الموافق للكتاب والسنة ، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين ؛ فليس كل من أخطأ يكون كافرًا ، ولا فاسقًا ، بل قد عفا الله لهذه الأمة الخطأ والنسيان) ج 3 ، ص420 .
وأهل السنة والجماعة لا يمتحنون الـنـاس بأمـور ما أنزل الله بها من سلطان ولا يتعصبون لأسماء، أو شعارات، أو تجمعات، أو زعـامـات، بل يـوالــون ويـعادون على أساس الدين والتقوى، ولا يتعصبون إلا لجماعة المـسـلمين، بمعناها الحقيقي، وهي الجماعة التي ترفع رايـة الـقـرآن والسنة ، وهدي السلف الصالح -رضي الله عنهم- .
(... بل الأسـمـاء الـتـي قـد يسـوغ التسمي بها - مثل انتساب الناس إلى إمام، كالحنفيِّ، والمـالـكـيِّ ، والـشافـعـي والحـنبلي ، أو إلى شيخٍ ، كالقادريِّ

والعدويِّ ونحوهم ، أو مثل الانتساب إلى القبائل، كالقيسيِّ، واليمانيِّ، وإلى الأمصار، كالشاميِّ، والعراقيِّ، والمصريِّ- فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء، ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، من أيِّ طائفةٍ كان)ج 3،ص 416 .
(فكيف يجوز - مع هذا لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن تفـترق وتخـتـلف، حتى يـوالـي الـرجل طائفةً ويعادي أخرى، بالظن والهوى، بلا برهانٍ من الله تعالى وقد برّأ الله نـبـيـه - صلى الله عليه وسلم - ممّن كـان هـكـذا فهذا فعل أهل البدع كالخوارج ، الذين فارقوا جماعة الـمسـلـمـين ، واستحلوا دماء من خالفهم . وأمّا أهل السنة والجماعة، فهم مـعـتـصـمـون بـحـبـل الله، وأقـل مـا فـي ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه، وإن كان غيره أتقى لله منه !... وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة ، لا أصل لها في كتاب الله ، ولا سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -؟! وهذا التفريق الذي حصل من الأمة: علمائها، ومشايخها، وأمرائها، وكـبـرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله . فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به ، وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب) ج 3 ، ص 419 -421 .
وأهـل الـسـنـة والـجـمـاعـة يعملون دائمًا في إطار من الاجتماع والتآلف ومحبة الخير لكل المسلـمـيـن، والـعـفـو والـتـجـاوز عن إساءة المسيء، وخطأ المخطيء، ودعوته إلى الصواب، والدعاء له بالهداية والرشاد والمغفرة .
(تـعـلـمـون أن من القواعد العظيمة، التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول: ((فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)) وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة. وجماع السنة، طاعة الرسول .
وإني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين -فضلاً عن أصحابنا- بشيءٍ أصلاً ؛ لا باطنًا، ولا ظاهرًا، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لـوم أصــلاً، بـل لـهـم عندي من الكرامة والإجلال، والمحبة والتعظيم ، أضعاف أضعاف ما كان ، كلٌ بحسبه ، ولا يخلو الرجل ، إمّا أن يكون مجتهدًا مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً . فالأول ؛ مأجور مشكور ، والثاني؛ مع أجره على الاجتهاد، فمعفوٌ عنه ، مغفورٌ له ، والثالث ؛ فالله يغفر لنا وله ولسائر المسلمين ...
وتعلمون أنّا جميعاً متعاونون على البر والتقوى ، وواجبٌ علينا نصر بعضنا البعض ، أعظم مما كان وأشد ..
وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ... وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل الصالح

يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم) ج 28 ، ص 55-57 .

علماء معاصرون

الشيخ محمد الخضر حسين
(1293-1373) هـ

أحمد عبد العزيز أبو عامر

يحفل تاريخنا الإسلامي في القديم والحديث بنماذج مشرفة للعلماء الذين ضربوا المثل الأعلى في الفضل والعلم والجهاد ، وكثير من هؤلاء مغمورون ، وقليل من الناس من يعرفهم .
وسأحاول في هذه المقالة عرض حياة علم من هؤلاء العلماء الأعلام، وسترى فيه أخي القارئ ، نموذجاً للصبر على العلم والتحصيل والتبليغ والجهاد والمواقف الجريئة . فما أحوجنا لأمثاله من العلماء العاملين الذين هم بحق ورثة الأنبياء .
هو: محمد الخضر حسين الذي ينتسب إلى أسرة عريقة في العلم والشرف، حيث تعود أسرته إلى البيت العمري في بلدة (طولقة) جنوب الجزائر، وقد رحل والده إلى (نفطة) من بلاد الجريد بتونس بصحبة صهره (مصطفى بن عزوز) حينما دخل الاستعمار الفرنسي الجزائر، ومما يدل على عراقة أسرته في العلم أن منها جده (مصطفى بن عزوز) وأبو جده لأمه (محمد بن عزوز)، من أفاضل علماء تونس، وخاله (محمد المكي) من كبار العلماء وكان موضع الإجلال في الخلافة العثمانية .
وسنتتبع حياة عالمنا في مراحل ثلاث :
الأولى : في تونس : حيث ولد الشيخ بنفطة عام 1293 ، وعلى أرضها درج ونشأ ، وهو - كأي عالم مسلم - تبدأ حياته في أجواء البيت المسلم ، والأسرة المسلمة ، ثم أخذ العلم في نفطة وكان لا يتعدى مبادئ علوم الدين ووسائلها ، وقد ذكر أن والدته قد لقنته مع إخوانه (الكفراوي) في النحو و (السفطي) في الفقه المالكي ، وفي عام 1306 انتقل مع أسرته إلى العاصمة ، فتعلم بالابتدائي ، وحفظ القرآن مما خوله الانتظام بجامع الزيتونة فجد واجتهد وثابر على مواصلة العلم ، حتى صار مثار إعجاب أساتذته وعارفيه ، حيث درس على أستاذه (سالم أبو حاجب) صحيح البخاري ، وعنه أخذ ميوله الإصلاحية وأخذ التفسير عن أستاذيه (عمر بن الشيخ) و (محمد النجار) ، وفي عام 1316 نال شهادة (التطويع) التي تخول حاملها إلقاء الدروس في الزيتونة تطوعاً وكانت هذه الطريقة درباً للظفر بالمناصب العلمية وميداناً للخبرة والتدريب على مهنة التعليم ، فعظمت مكانته في نفوس زملائه ، وذاع صيته في البلاد حتى صار من قادة الفكر وذوي النفوذ ، وأعجب به طلبة الزيتونة

وكانت الحركة الفكرية هناك في حاجة لإبراز نشرة دورية تنطق بلسانها ، ولم يكن يوجد آنذاك بتونس سوى الصحف . فقام بإنشاء مجلته (السعادة العظمى) فنالت إعجاب العلماء والأدباء وساء بعضهم صدورها لما اتسمت به من نزعة الحرية في النقد واحترام التفكير السليم ، ولتأييدها فتح باب الاجتهاد حيث قال الشيخ عنه في مقدمة العدد الأول :
(.. إن دعوى أن باب الاجتهاد قد أغلق دعوى لا تسمع إلا إذا أيدها دليل يوازن في قوته الدليل الذي فتح به باب الاجتهاد) .
وكان منهج المجلة كما جاء في المقدمة أيضاً يتمثل في :
1- افتتاحية لكل عدد تحث على المحافظة على مجدنا وتاريخنا .
2- تعرض لعيون المباحث العلمية .
3- ما يكون مرقاة لصناعة الشعر والنثر .
4- الأخلاق كيف تنحرف وبم تستقيم .
5- الأسئلة والمقترحات .
6- الخاتمة ومسائل شتى .
وهكذا صدرت هذه المجلة فملأت فراغاً كبيراً في ميدان الثقافة الإسلامية وتسابق العلماء والكتاب للمشاركة فيها حتى أغلقها المستعمر الفرنسي حينما تعرض لهجومها عام 1322 هـ أي بعد مضي عام واحد فقط على صدورها ، فاتجهت إلى الشيخ الجمعيات الرسمية وغيرها للاشتراك في أعمالها ، ثم تولى قضاء (بنزرت) عام 1323 مع الخطابة والتدريس بجامعها ، وحدثت اشتباكات بين المواطنين والمستعمر ، فتطور الأمر ، وأعلنت الأحكام العرفية وعطلت الصحف ، وسجن أو نفي معظم ذوي الشأن من القادة والمفكرين فأصبحت كل حركة تبدو من الطلاب محمولة عليه . فنظر إليه المسؤولون شذراً ، خصوصاً بعد إضراب الطلاب عن التعليم. وفي هذا الجو المكهرب والمحبوك بالمؤامرات دفع به الضيق إلى طلب حياته الفكرية والعملية في خارج تونس ، خصوصاً وأنه من أنصار (الجامعة الإسلامية) الذين يؤمنون بخدمة الإسلام خدمة لا تضيق بها حدود الأوطان .
فـقـام بـعـدة سـفـرات متوالية بادئاً بالجزائر عام 1327 لإلقاء المحاضرات والدروس فلقي ترحيباً من علمائها ، وكانت هذه الرحلة بداية جديدة شرع بعدها في إعداد نفسه وأفكاره الإصلاحية . ثم عاد إلى تونس لمزاولة التدريس . واشترك في مناظرة للتدريس من الدرجة الأولى ، فحرم من النجاح فحز ذلك في نفسه لسيطرة روح المحاباة على الحياة العلمية في بلده .
وفي عام 1329 وجهت إليه تهمة بث العداء للغرب ، ولاسيما فرنسا ، فيمم وجهه صوب الشرق ، وزار كثيراً من بلدانه ، وزار خاله في الآستانة ولعل هذه الرحلة لاكتشاف أي محل منها يلقي فيه عصا الترحال . ثم عاد لتونس فلم يطب له المقام والمستعمر من ورائه.

المرحلة الثانية : عدم الاستقرار :

وصل دمشق عام 1330 مع أسرته ومن ضمنها أخواه العالمان المكي وزين العابدين ، فعين الشيخ (محمد الخضر حسين) مدرساً بالمدرسة السلطانية ، وألقى في جامع بني أمية دروساً قدّره العلماء عليها، وتوثقت بينه وبين علماء الشام الصلة وبخاصة الشيخ البيطار، والشيخ القاسمي ، ولما كانت آنذاك سكة الحديد الحجازية سالكة إلى المدينة المنورة زار المسجد النبوي عام 1331 وله في هذه الرحلة قصيدة مطلعها :

أحييك والآماق ترسل مدمعاً كأني أحدو بالسلام مودعاً

وفي هـذه الفـتـرة شـده الحـنـيـن إلى تـونـس الخـضـراء، فزارها وله في ديوانه ذكريات في الصفحات 26 ، 134 .

وكـان الشـيـخ دائـمـاً ما يـدعـو للإخاء بـين العرب وإخوانهم الأتراك حينما بدأت النعرة القومية تفرقهم. وقد ذهب إلى الآستانة، ولـقـي وزيـر الحربية (أنور باشا) فاختير محرراً للقلم العربي هناك فعرف دخيلة الدولة، فأصيب بخيبة أمل للواقع المؤلم الذي لمسه ورآه رؤيا العين، فنجد روحه الكبيرة تتمزق وهي ترى دولة الخلافة تحتضر وقال في قصيدة (بكاء على مجد ضائع) :

أدمـى فـؤادي أن أرى الـ أقـلام تـرسـف في قـيـود
وأرى سـيـاسـة أمـتـي في قبضة الخصم العـنـيد

وفي عام 1333 هـ أرسله (أنور باشا) إلى برلين في مهمة رسمية ، ولعلها للمشاركة في بث الدعاية في صفوف المغاربة والتونسيين داخل الجيش الفرنسي والأسرى في ألمانيا لحملهم على النضال ضد فرنسا ، أو التطوع في الحركات الجهادية . وظل هناك تسعة أشهر أتقن فيها اللغة الألمانية وقام بمهمته أحسن قيام ، وقد نقل لنا من رحلته هذه نماذج طيبة مما يحسن اقتباسه ، لما فيه من الحث على العلم والجد والسمو . نجدها مفرقة في كتبه ففي كتاب (الهداية الإسلامية) ص 155 ، 164 ، 175 ، وفي كتابه (دراسات في الشريعة) ص 135 ، ولما عاد للآستانة وجد خاله قد مات فضاقت به البلد ، وعاد إلى دمشق ، فاعتقله (جمال باشا) عام 1334 بتهمة علمه بالحركات السرية المعادية للأتراك ، ومكث في السجن سنة وأربعة أشهر برئت بعدها ساحته ، وأطلق سراحه فعاد للآستانة فأرسل في مهمة أخرى لألمانيا . ثم عاد إلى دمشق ، وتولى التدريس بثلاثة معاهد هي : (المدرسة السلطانية - المدرسة العسكرية - المدرسة العثمانية) ثم نزح عن دمشق التي أحبها حينما أصدر ضده حكم غيابي بالإعدام - لما قام به ضد فرنسا من نشاطات في رحلاته لأوربا - وذلك بعد دخول المستعمر الفرنسي إلى سورية، وكان أمله أن يعود إلى تونس، ولكن إرادة الله شاءت أن تكون مصر هي مطافه الأخير ، وبهذا تتم المرحلة الثانية .

المرحلة الثالثة : مصر:

وقد وصلها عام 1339 فوجد بها صفوة من أصدقائه الذين تعرف عليهم بدمشق ومنهم: (محب الدين الخطيب) ونظراً لمكانته العلمية والأدبية اشتغل بالكتابة والتحرير ، وكان العلامة (أحمد تيمور) من أول من قدر الشيخ في علمه وأدبه . فساعده وتوطدت العلاقة بينهما. ثم كسبته دار الكتب المصرية . مع نشاطه في الدروس والمحاضرات وقدم للأزهر ممتحناً أمام لجنة من العلماء اكتشفت آفاق علمه ، فاعجبت به أيما إعجاب فنال على أثر ذلك (العالمية) فأصبح من كبار الأساتذة في كلية (أصول الدين والتخصص) لاثنتي عشرة سنة ، وفي عام 1344 أصدر كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) رد فيه على الشيخ (علي عبد الرزاق) فيما افتراه على الإسلام من دعوته المشبوهة للفصل بين الدين والدولة ، وفي عام 1345 أصدر كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) رداً على طه حسين فيما زعمه في قضية انتحال الشعر الجاهلي وما ضمنه من افتراءات ضد القرآن الكريم . وفي عام 1346 هـ شارك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين، وفي السنة نفسها أسس جمعية (الهداية الإسلامية) والتي كانت تهدف للقيام بما يرشد إليه الدين الحنيف من علم نافع وأدب رفيع مع السعي للتعارف بين المسلمين ونشر حقائق الإسلام ومقاومة مفتريات خصومه، وصدر عنها مجلة باسمها هي لسان حالها، وفي عام 1349 هـ صدرت مجلة (نور الإسلام - الأزهر حالياً) وتولى رئاسة تحريرها فترة طويلة . وفي عام 1351 منح الجنسية المصرية ثم صار عضواً بالمجمع اللغوي . ثم تولى رئاسة تحرير مجلة (لواء الإسلام) مدة . وفي عام 1370 تقدم بطلب عضوية جمعية كبار العلماء فنالها ببحثه (القياس في اللغة) وفي 21/12/1371 هـ تولى مشيخة الأزهر وفي ذهنه رسالة طالما تمنى قيام الأزهر بها، وتحمل هذا العبء بصبر وجد وفي عهده أرسل وعاظ من الأزهر إلى السودان ولاسيما جنوبه، وكان يصدر رأي الإسلام في المواقف الحاسمة، وعمل على اتصال الأزهر بالمجتمع واستمر على هذا المنوال، ولما لم يكن للأزهر ما أراد أبى إلا الاستقالة .

ولابد من ختم هذا المقالة بذكر بعض من المواقف الجريئة التي تدل على شجاعته ، وأنه لا يخشى في قول الحق لومة لائم شأنه شأن غيره من علماء السلف الذين صدعوا بالحق في وجه الطغيان في كل زمان ومكان .

1- حينما كان في تونس لم تمنعه وظيفته من القيام بواجبه في الدعوة والإصلاح بالرغم من أن الاستعمار ينيخ بكلكله على البلاد ، فقد ألقى في نادي (قدماء مدرسة الصادقية) عام 1324 محاضرته (الحرية في الإسلام) والتي قال فيها :

(إن الأمة التي بليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها ، أو حكومة جائرة تسوقها بسوط الاستبداد هي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد وننفي عنها لقب الحرية) .
ثم بيّن حقيقتي الشورى والمساواة ، ثم تحدث عن حق الناس في حفظ الأموال والأعراض والدماء والدين وخطاب الأمراء . ثم بيّن الآثار السيئة للاستبداد وهذه المحاضرة من دراساته التي تدل على شجاعته وعلى نزعته المبكرة للحرية المسؤولة وفهمه لمنهج الإسلام فهماً راقياً سليماً .
2- وفي عام 1326 عرضت عليه السلطة المستعمرة الاشتراك في المحكمة المختلطة الـتـي يكون أحد طرفيها أجنبياً . فرفض أن يكون قاضياً أو مستشاراً في ظل الاستعمار . ولخدمة مصالحه وتحت إمرة قانون لا يحكم بما أنزل الله .
3- ولا أزال أذكر ما قصه علينا أستاذ أزهري كان آنذاك طالباً في أصول الدين إبان رئاسة الشيخ للأزهر ، حين دعا أحد أعضاء مجلس الثورة إلى مساواة الجنسين في الميراث ، ولما علم الشيخ بذلك اتصل بهم وأنذرهم إن لم يتراجعوا عن ما قيل فإنه سيلبس كفنه ويستنفر الشعب لزلزلة الحكومة لاعتدائها على حكم من أحكام الله ، فكان له ما أراد .

أواخر حياته :

واستمر الشيخ محمد الخضر حسين -رحمه الله- في أواخر حياته يلقي المحاضرات ويمد المجلات والصحف بمقالاته ودراساته الـقـيمة، بالرغم مما اعتراه من كبر السن والحاجة إلى الراحة وهذا ليس غريباً عمن عرفنا مشوار حياته المليء بالجد والاجتهاد والجهاد .
وكان أمله أن يرى الأمة متحدة ومتضامنة لتكون كما أراد الله خير أمة أخرجت للناس، وحسبه أنه قدم الكثير مما لانجده عند الكثير من علماء هذا الزمان .
وفي عام 1377 هـ انتقل إلي رحاب الله ، ودفن في مقبرة أصدقائه آل تيمور جزاه الله عن الإسلام خير الجزاء ، ورحمه رحمة واسعة ، وعفا الله عنا وعنه ، وأرجو أن يكون لنا لقاء آخر مع وقفات عند علم الشيخ وما طرحه من أفكار في الدعوة والإصلاح .

كتاب في مقال

منصور الأحمد

لاشـك أن كـل مـوضـوع يكـتـبـه الـكـاتـب، وكل مقالة يخطها قلمه، يكون وراءهما أسباب ودوافع تدفعه إلى اختيار ما اختار .
فما الذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع، وما الشيء الذي يحسن التنويه به ، والذي ألحّ عليّ لأقدم هذه الكلمة حول كتاب: "النبأ العظيم" ؟.

هناك سببان رئيسيان:
1- شخصية الكاتب .
2- وموضوع الكتاب .
أما الكاتب، فهو الدكتور محمد عبد الله دراز، رحمه الله، وهو عالم غـني عن التعريف، من حملة لواء الثقافة الإسلامية المعاصرة .
وفي حياة هذا العالم مواطن للعبرة ، يحسن بنا أن نقف عندها ونقدمها للشباب المسلم في كل مكان .
فـأول مـا يـفـجـؤك في هـذه الـشـخـصـية هـذا الـتـزاوج الفـذ، والتلاقح الغني بين ثقافتين متباينتين، عادت نتيجته بالخير العميم على الثقافة الإسلامية .
وفي مجال الصراع الفكري والثقافي الذى خاضه المسلمون في العصر الحديث ، وجدنا ألواناً متعددة من التأثر .
_ فهناك طائفة خضعت خضوعاً كاملاً وذليلاً للثقافات الغازية .
- وطائفة شعرت بشراسة الهجمة الفكرية ووطأتها ، فاستعصمت بخطط دفاعية ، إن نفعت في رد عادية الغازي الواغل (الذي يدخل في القوم وليس منهم) مؤقتاً ، فهي لن تنفع أمام فكر لا يزال يستخدم كل أساليب الحيلة والمكر ، وينصب كل أحابيل الشيطان الكرة بعد الكرة ليستأنف هجومه عوداً على بدء.
- وطائفة ثالثة أغمضت عيونها، وأصمت آذانها عن كل ما هو غريب عن الإسلام والمسلمين ، متجاهلة أن هذه الأرض يعيش عليها المؤمن والكافر ، ويتجاور فيها البر والفاجر ، وأنها -بفضل المكتشفات العلمية الحديثة ، والسرعة الخيالية التي تطورت فيها وسائل الاتصال- قد ضاقت رقعتها ، وتضامَّت أطرافها ، فكان من شأن هذه الطائفة - مع توفر النيات الطيبة- أن عزلت نفسها في عالم خاص اصطنعته لنفسها ، ورضيه لها من يفرضون على أمتنا فكرهم وطريقة حياتهم ، فصار يُنظر إلى هذه الفئة نظرة منكرة ، وكأنها خارجة للتوِّ من تحت أطباق القرون ، مع أنها تعيش في هذا العصر ، ولكن بجسمها ، بينما فكرها ملتفت إلى الوراء فحسب ، وقد خلقه الله ليلتفت إلى الجهات الست .
- وهناك طائفة رابعة ، تشبعت بالثقافة الإسلامية الأصيلة ، ولم يشفها ذلك ، حيث رأت نفسها تعيش في عالم تمور فيه الأفكار من كل لون ، والثقافة التي تشبعت بها قد زوحمت وحوصرت وأقصيت من مجالاتها الحيوية ، فلم يفتَّ ذلك في عضدها ، بل رأت أن الأمر جد ، وأنه لابد من معرفة كنه هذه الثقافة الغازية ، ولابد من سبر غورها ، وذلك لا يكون إلا بأخذ العدة لها ، وخوض غمارها ، فأقبلوا على ذلك ، غير مدخرين جهداً ، بنفوس واثقة لا تعيقها عن غايتها عقدة نقص ، ولا يفتنها عن دينها بهرج الحضارة الغربية .

ومن هذه الفئة الأخيرة مؤلف هذا الكتاب محمد عبد الله دراز ، فبعد أن حاز أعلى الدرجات العلمية من الأزهر سافر إلى فرنسا ، فقضى هناك حوالي أحد عشر عاماً درس فيها مناهج البحث عند الغربيين ، حتى هضمها وتَمَثَّلها أحسن تمثُّل ، وليس هذا القول من قبيل الدعاوى العريضة ، فنظرة إلى ما ترك من آثار علمية تجعلنا نستيقن ذلك .

وإن ما يستوقف النظر في شخصية هذا العالم أنه حينما يتناول ثقافة الغرب تراه ناظراً إليها من عَلٍ ، مشرفاً عليها من قمة الفكر الإسلامي ، واضعاً لها في الموضع الذي يجب أن تكون فيه ، ثقافةً أرضيةً مبتوتةَ الصلة عن وحي السماء ، قامت على مبادئ الهيمنة ، وبلغت أشدها في ظل الظلم والغرور ، قصارى أهلها والمفتونين بها أنهم ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)) [الروم:7].

والثقافة "الموسوعية" لهذا الرجل تغري الإنسان أن يلتفت حوله في أرجاء العالم الإسلامي ليرى كثيراً من علماء المسلمين من يقف نفسه على كتب سلفنا الصالح - ونعمت - لا يغادرها إلى غيرها ، وينقضي عمره بالبحث عن دقائق ما اختلفوا فيه من المشكلات ، لا ليستخلص من ذلك منهجاً يعالج به مشكلات الحاضر ، بل ليقنع نفسه ومن حوله بأن العلم هو هذا ، وأن ما وراءه لا يعدل شيئاً .

نعم ، إن هذا من العلم ، ولكن بمقدار أن لا يشغلنا الماضي عن الحاضر وبمقدار ما يفيدنا في حل المعضلات التي تأخذ منا بالنواصي والأقدام ، وبمقدار ما نتسلح منه بما نناضل به في ساحة صراع شرس ، وحرب معلنة شُنت علينا مستهدفة عقيدتنا وفكرنا وثقافتنا ووجودنا كله ، وأي بقاء لأمة تذوب في غيرها ؟!.

ومن أعجب العجب أنك تجد العالم في علم النحو والبلاغة والتفسير والفقه والحديث لا يشق له غبار ، إلا أنه قد يجهل أين تقع قدمه من خريطة العالم ، ومن الذى يتحكم بمصيره ومصير أمته ومن يتصرف بالنيابة عنه في أخص خصوصياته ، بل قد يجهل من الذى ضيّق مجال علمه ، وأبعده من واقع الحياة ، حتى جعله مقصوراً على حلقات بحث - إن وجدت - أشبه بمراجعة آثار بائدة ، ومن أعجب العجب كذلك من تراه يريد تطبيق ما فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع وفد نصارى نجران على الغرب الصليبي وعلى أمريكا ! . إنه قد يكون استظهر حادثة وفادة وفد نصارى نجران على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقارن بين الروايات ، ووازن بين أقوال العلماء فيها ورجَّحَ . . ولكنه يجهل حال الغرب الصليبي العقائدية ، ولا يعرف عن التطورات التي انتابت المسيحية عبر تاريخها ، لا من حيث بدايات التأثير الوثني ، ولا من حيث تلاعب الأهواء البشرية ، بل وتلاعب اليهود بها حتى وقتنا الحاضر ، فأين حال من حال ، وأين نصارى من نصارى؟! .

وهذا مثال ضربته لأشير من خلاله إلى أن تغيير حال المسلمين لا يكون إلا بحسن فهم لثقافتهم ، واعتزاز عميق بها مع معرفة عميقة ونظر وتحليل للظروف الداخلية والخارجية التي تؤثر فيهم، أو يمكن أن تؤثر فيهم في المستقبل القريب أو البعيد .

منهج المؤلف في التأليف:

نستطيع أن نتبين منهج المؤلف في التأليف من كلمة أحد العلماء (شمس الدين البابلي ، ت 1077 هـ) ، وصدر بها كتابه: "دستور الأخلاق في القرآن" ، وهي:

" لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة ، ولا يمكن التأليف في غيرها ، وهي:

- إما أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه يخترعه،
- أو شيء ناقص يتممه ،
- أو شيء مستغلق يشرحه ،
- أو طويل يختصره ، دون أن يخل بشيء من معانيه ،
- أو في شيء مختلط يرتبه ،
- أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه ،
- أو شيء مفرق يجمعه" .

ومن هنا فإنه يتحدد مقصده من موضوعه هذا ، وليس أكثر من الكتب المؤلفة حول القرآن الكريم ، تفسيراً ، وأسباب نزول ، وبيان إعجاز ، ولكن كتاب " النبأ العظيم " على صغر حجمه يظل معلمة بارزة تقف شامخة بين كل الدراسات القرآنية ، وسر ذلك يكمن في:

1 - الوحدة الموضوعية:

فالقضية الأساسية التي يدور عليها الكتاب ، والمحور الذي أدير عليه البحث هو بيان مصدر القرآن هل هو الوحي الإلهي، أم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ابتدعه وألفه ؟.

حول هذه القضية تحتشد الأدلة المنطقية من أول البحث إلى منتهاه سواء ما تعلق بشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو ما تعلق بظاهرة الوحي ، أو ما تعلق منها بنص القرآن الكريم نفسه .

ففيما يتعلق بشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعرض شواهد من سيرته تجاه القرآن " لها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه وأنه لم يفض من قلبه بل أُفيض عليه " ص32 .

وكذلك يستنبط من سيرته العامة مجموعة من الأخلاق العظيمة ، كأمثلة تصور لنا هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - " إنساناً الطهر ملء ثيابه ، والجد حشو إهابه ، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه ، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما

يعلنه ، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين: تواضع هو حلية العظماء ، وصراحة نادرة في الزعماء ، وتثبت قلما تجده عند العلماء " ص 32.
ويفـنِّد الاحتمالات التي يثيرها الملحدون والمعاندون خلال محاولاتهم القديمة والحديثة للتشكيك في مصدر القرآن ، ماراً خلال تفنيده بالفروق الجوهرية بين القرآن والحديث ، واستحالة أن تكون المعلومات التي تضمنها القرآن الكريم مما يستنبطه العقل والتفكير ، ومما يدركه الوجدان والشعور .
ثم يخلص إلى شبهة أن يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تلقى هذا القرآن من معلم وبعد مناقشة مستفيضة لهذه الشبهة ودحضها بالبراهين الدامغة يقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر: " قل لنا ما اسم هذا المعلم؟ ومن الذي رآه وسمعه ، وماذا سمع منه ، ومتى كان ذلك ، وأين كان؟. .. " ص 63 .
وبعد أن أثبت استحالة أن يكون للقرآن مصدر إنساني ، لا في نفس صاحبه ، ولا عند أحد من البشر ، انتقل إلى المرحلة الثالثة ليبحث عن ذلك المصدر في أفق خارج عن هذا الأفق الإنساني جملة ، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - ، فاستعرض الكيفيات التي كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستقبل فيها الوحي ، وأنها لم يكن فيها شيء متكلفاً مصنوعاً ، وأنها " "مباينة للأعراض المرضية ، والنوبات العصبية التي تصفرُّ فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان ، وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ، ويخيم ظلام الجهل" ص72.
وبعد أن درس الطريق التي جاء منها القرآن ، ولم يجد " في اعترافات صاحبه ، ولا في حياته الخلقية ، ولا في وسائله وصلاته العلمية ، ولا في سائر الظروف العامة والخاصة ، ولا في وسائله وصلاته العلمية التي ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على وجه الأرض أب ننسبه إليه من دون الله " ص 76 ، تقدم مع الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلا قليلاً ، ويريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه ، تقدم معهم خطوة أخرى ، فبين لهم أن هذا الكتاب يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر ، فدرس نواحي الإعجاز القرآني الثلاثة:
الإعجاز اللغوي ، والإعجاز العلمي والإعجاز الإصلاحي .
فمن ناحية الإعجاز اللغوي فند الشبهة الممكنة حول هذه القضية ، وهي :
- شبهة القدرة على محاكاة القرآن .
- وشبهة من ينسب هذه القدرة إلى غيره .
- وشبهة أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تكن بسبب عجزهم بل بسبب انصراف هممهم .
- وشبهة من يظن أن إعجاز القرآن لم يكن من الناحية اللغوية .

- وشبهة من يقول: إن عدم قدرة الناس على مجاراة أسلوب القرآن ليست بسبب خصوصية القرآن ، بل لأن أسلوب كل قائل أو كاتب صورة لنفسه لا يستطيع أحد غيره أن يجاريه فيه . وهنا يصل إلى إبراز بعض أسرار الإعجاز القرآني ، فينظر أولاً في القشرة السطحية للفظ القرآن، ثم يقدم نظرات في لب البيان القرآني وخصائصه التي امتاز بها عن سائر الكلام ، سواء في الفقرة التي تتناول شأنا واحداً ، أو في السورة التي تتناول شؤوناً شتى ، أو فيما بين سورة وسورة ، أو في القرآن جملة.
ويطبق هذه النظرات على آية يختارها من عرض القرآن ، فيبلغ القمة ويحلق إلى أجواء لم يسبق إليها . ثم يختم الكلام على الوحدة الموضوعية لسور القرآن ، ممثلاً لذلك بأطول سورة منه: " سورة البقرة " .

2 - امتلاك المؤلف أدوات البحث والهيمنة عليها:

ويظهر هذا الأمر- بادىء ذي بدىء - من تحديده للموضوع الذي يطرحه ، فيحرر محل النقاش -شأنه شأن علمائنا القدامى - ويستبعد مالا يدخل تحت التساؤل ، انظر إليه كيف يدخل إلى المشكلة:
"لقد علم الناس أجمعون علماً لايخالطه شك ، أن هذا الي الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي ، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله - هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .
أما بعد ، فمن أين جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ أمن عند نفسه، ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟ ص20 .
وأنت ، إذا قرأت الكتاب بروية ، وجدت فصوله وفقراته ، كلاً منها يسلمك إلى ما بعده ، ويأخذ بعضها بأكناف بعض ، وقد انتظمت حججه وأدلته ، فبعضها يستنبط من البديهيات العقلية ، وبعضها متضمن للقواعد المنطقية ، وبعضها مأخوذ من المعلومات التاريخية والأدبية ، ويغذي كل ذلك خلفية علمية بادية في أسلوبه واستحضار مدهش لآيات القرآن الكريم والمسائل المطروحة حوله يقول بعد أن أنهى الكلام على 91 من سورة البقرة (ص 119 و ما بعدها):
"ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه الذي قصدنا إليه . فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق ، لا نراه في كلام الناس، ذلك أن المرء إذا أهمه أمر من الدفاع أو الاقناع أو غيرهما بدت على كلامه ، مسحة الانفعال بأغراضه ، وكان تأثيره بها في نفسك على قدر تأثره هو ، طبعاً وتطبعاً ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة في ظفره ومن الامتعاض في إخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفًا لو أعرض الناس عن هداه إذا كان مؤمنًا بقضيته ، مخلصاً في دعوته ، كما هو شأن الأنبياء -عليهم

السلام- . أما هنا فإنك تلمح وراء هذا الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ؟ قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشرها ، في عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر.
هذا الطابع من الكبرياء والعظمة تراه جليًا من خلال هذا الأسلوب المقتصد في حجاجه أخذاً وردًا ، المقتصد في وصفه مدحاً وقدحاً ص127.

3- التوفيق بين الدقة العلمية وإشراق الأسلوب:

إنها معادلة صعبة ، أن يوفق الكاتب بين هذين الأمرين: دقة علمية بالغة ، وأسلوب يملك عليك فكرك ويأسرك بإشراقه وحيويته .
وكثيرا ما ضحى علماء كبار بجمال الأسلوب ونصاعته في سبيل تحديد الفكرة التي يعالجونها وإيضاحها ، وعلى النقيض من أولئك جاءت أساليب بعض العلماء فارغة جوفاء حينما ولوّا وجوههم شطر التجويد في الأسلوب ، والتنميق في الشكل ، فسوّدوا صحائف يحسبها الظمآن ماءً ، وما هي إلا سراب .
أما هنا ، فتجد هذه الميزة - ميزة عدم طغيان أحد طرفي هذه المعادلة على الآخر - واضحة جلية ، وكأنما ذاك نتيجة للميزة الثانية للكتاب: (امتلاك المؤلف لأدوات البحث).
ومما عزز ذلك -والله أعلم - تشبعه بأسلوب القرآن الكريم ومنهجه ، فلا تكاد تجد فقرة من فقرات الكتاب لا يظهر فيها انعكاس الأسلوب القرآني على أسلوب الرجل ، واستخدام الجملة القرآنية استخداماً أخاذاً في مطابقته للفكرة ، ومناسبته وامتلاكه لشعور القارىء .
وإنه ليصعب على الدارس أن يختار مثالاً على هذه الميزة من الكتاب ، وذلك لأنه كله دليل على ذلك ، وأية فقرة اخترتها فأنت واجد في غيرها ما قد يكون أدل على ذلك. ولكن خروجاً من هذه الحيرة فإننا نثبت هنا تعقيبه على موضوع الآيات (135 - 162) من سورة البقرة:
" أرأيت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل ، كيف رتبها مرحلة مرحلة ، وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة ؟ فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين ، فهي في جملتها مناجاة من الله للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين في خاصة شأنهم وفيما يعنيهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لوّن كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به ، فالتقى المقصدان على أمر قد قدر .
ألم تر كيف بدأها بأن قصّ على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها ، حتى جلاها بيضاء للناظرين ، فكانت هذه البداية - كما ترى- نهاية

لتلك المعارك الطويلة التي حورب فيها الباطل في كل ميدان ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمساك بها في غير ما آية . .
أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة؟.
بلى .. إن ذلك هو ما توحي به سياقة هذه النجوى المتواصلة ، التي مدت في خطاب المؤمنين مداً ، وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار كل من ألقى سمعه إليها ملياً ،يسمع في طيها نداء خفياً: أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهاداً وأقبلنا على الأولياء تعليماً وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار ، وجئنا نفتح كتاب الأبرار ، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تكن إلا طليعة من كتائب الحق ، تنبئ أن سيتلوها جيشه الجرار ، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار . ألا ترى الميدان قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟ " ص 189.
وبعد ؛ فإن لم أكن قد وفيت هذا الكتاب حقه من التعريف ، فلا أقل من أن أكون قد أغريت القارئ بقراءته ، وذلك حسبي .

اليهود .. حقد موروث

نـقـلـت وكالات الأنـبـاء بـتاريخ 6/11/1986 خبراً من القدس مفاده أن المجندين اليهود يـتـدربـون في أحـد مـراكـز الجـيش الإسرائيلي على إطلاق النار على أهداف يعلوها غطاء الرأس "الكوفية" وهو الغطاء التقليدي العربي ويصدر إليهم الأمر على هذا النحو :
"صوب النار على محمد" أو "أطلق النار على محمد" .
عندما يقرأ المسلم هذا الخبر يـتـذكـر قـولـه تعالى: ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا)) [سورة المائدة 82] .
ولو تأملنا في ما يشير إليه هذا العمل - بعيداً عن التأثر بالعواطف - بشقيه: البَصَري ، وذلك بوضع "الكوفية" على الهدف أو العقلي المتمثل بصيغة الأمر المعُطَى : "أطلق النار على محمد"، لعرفنا أن هذا العمل بشقيه؛ يذكي روح الحقد والكراهية التي يكنها اليهود للعرب خاصة ، وللمسلمين عامة ، ويزيدهم فاعلية في تحديهم وخططهم ، وهم يكرهون العرب لأن أغلبيتهم مسلمة تدين بهذا الدين الذي له رأيه ورؤيته المحددة باليهود، ولهم من وحي ربهم غنية وبلاغ عن كل التحليلات والاكتشافات لخصائص العقلية اليهودية ، ومميزات المكر والالتواء التي عرف بها .

ويـكـرهــون الـمـسـلمين ونبي المسلمين ويجعلونه هدفاً يشحذون(1) به غيظهم وكراهيتهم، ويـنـفــسـون بـذلك عـن أحـقـادهــم الدفينة، وذلك لأنهم يعلمون من التاريخ أن الجماعة الإسلامية الفتية، القليلة العدد، بقيادة هذا الرسول العظيم، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، لم يخدعها ظاهر اليهود عن باطنهم، ولم تنحن لخطط اليهود وأحـابـيـلـهم، ولم تقع تحت إغرائهم ، ولم يَسِلْ لعابها لما يملكون من وسائل ، وما يبذلونه من مطامع ، واستعصت هذه الجماعة على خطط اليهود وكيدهم ، في الوقت الذي نرى فيه أعتى أمم الأرض، وأملكها لأسباب القوة المادية، - من أسلحة فتاكة، واقتصاد قوي، وأعداد بشرية كبيرة، وعقول خبيثة، مَرَنت على رسم خصص الشر، ودربت على الإفساد في الأرض؛ نــرى هــذه الأمــم الـعـاتـيــة وقد وقعت في شباك اليهود، وسقطت تستجدي نفوذهم، وتتملقهم بشتى صنوف الاسترضاء .

لذلك كله يكره اليهود المسلمين، ومع أنهم يكرهون البشر جميعاً، ويؤمنون أن كل البشرية يجب أن تكون بهائم لليهود، وأنهم شعب الله المختار، لكن كراهيتهم تزداد طرداً حسب تنبه الناس لهم، ومعرفتهم لأساليبهم، وتتناقص عكسياً بقدر استنامة الأمة لهم ، والغفلة عما هم بصدده ، أو موافقتهم ابتغاء عَرَض من الدنيا قليل تملكه أيديهم .

وتـبـقـى كـلـمـة نـوجـهـهـا لـبـنـي قومنا من العرب ممن لا يزالون يفرقون بين الصهيونية والـيـهـوديــة، وتـنـطـلـي عليهم هذه الخرافة التي يروِّجها الملاحدة وأشباههم من أصدقاء اليهود وأوليائهم فنقول :

إن الذي مكن لليهود في فلسطين هو امتلاء نفوسهم - قيادة وجماهير - بهذه العقيدة التي يؤمنون بها، والتي وحدت هدفهم وجددت طريقهم ، في الوقت الذى واجهوا فيه قيادات تـرفـع مـئــات الـرايـات، وقلوباً خفتت فيها أصوات العقيدة بل وجدوا قيادات في جانب وشــعـوبــاً في جانب آخر، فأي خذلان أكبر من هذا الخذلان، وأي فرصة مناسبة للأعداء أفضل من هذه الفرصة ؟!

ومع أن الحقائق تثبت يوماً بعد يوم ، أن لاخيار للعرب في رجوعهم إلى ما فيه عزهم ومنعتهم وهيبتهم - ألا وهو الإسلام - وأن أحوالهم المؤسفة ، وأمراضهم المستعصية لا علاج لها إلا بذلك ؛ إلا أننا لانزال نرى من تفرق الكلمة ، وكثرة الرايات وتوجيه الأسلحة إلى صدور وظهور المسلمين من قبل أبناء المسلمين ، ورفع كل راية ، ماعدا الراية الإسلامية ، ما يدمي القلب ، ويستمطر الدمع .

إن اليهود يعلمون حق العلم أن الإسلام هو المحتوى العقائدي والفكري للعرب ، وبهذا المحتوى فتحوا فلسطين وغيرها وأرسوا فيها معالم حضارته ، وبه أيضاً طردوا الصليبيين الذين هجموا هجمتهم على فلسطين وغيرها من بلاد الشام في ظرف هو أشبه بهذا الظرف البائس ، ولم يُردوا على أعقابهم خائبين إلا حين جوبهوا بقوة يقودها مثل عماد الدين ، ونور الدين(2) ، وصلاح الدين ، بعد فترة من التمزق تسلط فيها أصناف من الملاحدة والزنادقة

وأصحاب الأهواء والمبتدعة على رقاب المسلمين ، وعاثوا في بلاد الإسلام فساداً.

الهوامش :

1- شَحَذَ السيف : صقله وجعله حاداً .
2- عماد الدين زنكي وابنه نور الدين الشهيد .

خواطر في الدعوة

بين القوة والضعف

أبو أنس

من السهولة على كثير من الـنـاس مـعـرفة الخير والشر ، فإن الفرق بينهما واضح لكل ذي فـطـرة سـلـيـمـة، بـل إن اتـبـاع الخير أيسر على النفس من تعمد الشر، ولكن معرفة خير الـخـيـريـن واتـبـاع أعلاهما، ومعرفة شر الشرين والسكوت أو الاضطرار لفعل أدناهما دفعاً لأعلاهما فهذا هو الفقه الدقيق الذي يحتاجه المسلم ، خاصة إذا كثر الدَّخَن ، واضطربت المفاهيم ، وكثرت الاجتهادات دون علم ينير الطريق ويوضح المحجة . .

والمـسـلـم مـضطر للعيش في هذه الأجواء ، التي يختلط فيها الحق والباطل ويكثر فيها الشر مـع وجـود الـخـيـر، فـكـيـف يـكـون منسجماً مع نفسه ومع مبادئه التي يحملها ولا يقع في التناقض والحيرة ، ويصبح ممزق الشخصية بين الواقع والمثال .

هـنـا يظهر مصداق حـديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من يرد الله به خيراً يفقهه في الـديـن" فالفـقـيـه حـقـاً هو من يجنب نفسه والمسلمين الالتفاف حول النصوص والأخذ بالـرخـص المـلـفـقـة ، كما يجـنب نفسه والمسلمين العـنت والحرج المتعارض مع الحنيفية السمحاء.

إن سهولة انتشار كتب العلم في هذا العصر، جعل بعض الناس يقرأ الكتاب والكتابين، ثم يسـتـنـبـط ويسـتخـرج الأحكام من غـير أن يكون على دراية تامة ومعرفة بأسرار الشريعة وحكمتها في التدرج بالناس ومراعاة المصالح ومعرفة أسباب اختلاف العلماء ، ومن غير أن ينظر بعين البصيرة إلى تطور مراحل الدعوة والدولة ، وكيف كانت تتنزل الأحكام . والذي يطالب المسلمين بتطبيق تفاصيل الشريعة ، كالتميز عن الكفار في كل شيء أو تطبيق مـا جـاء في سـورة بـراءة من قتال المشركين كافة والمسلمون في حـالة ضـعـف، فهذا لم يفقه الإسلام الفقه الصحيح .

ومن الأدلة على أن بعض الأحكام تختلف بين حال القوة والضعف:

1- ما جـاء في قـصـة صبـيـغ بن عِـسـل أنه كان يـسـأل عـن تفسير ((وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاتِ وِقْراً...)) الآيات، يفـتش بذلك عن المعضلات ويـتـتبع المتشابه، وسمع به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فدعا الله أن

يمكنه منه، فلما حضر بين يديه وتأكد له أنه يسأل عن هذه الأشـيـاء أمـره بوضـع عمامـته فإذا له وفرة، فقال له: "لو رأيتك محلوقاً لضربت عنقـك"، لقد خشيَ عمر أن يكون هذا الرجل من الخوارج الذين وردت الأحاديث بذمهم وأن من علاماتهم التحليق ، وكان عمر سيقتله لو تأكد له أنه من هذه الفئة مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقتل ذي الخويصرة التميمي عندما انتقد قسمته لغنائم حنين وقال له: (إنك لم تعدل) فقال - صلى الله عليه وسلم -: "ويحك من يعدل إذا أنا لم أعدل!" ، فيُعلم أن العفو عن الخوارج كان في حالة الضعف والاستئلاف(1) ..

2- إن الحال التي أخبر الله -سبحانه- أن المسلمين يسمعون أذىً من الذين أوتوا الكتاب والمشركين نسخت عند بعض العلماء بحال القوة والأمر بقتالهم ، وبعض الناس يقول: الأمر بالصفح باق عند الحاجة إليه بضعف المسلم عن القـتال، ولاخلاف أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان مـفـروضــاً علـيه لما قـوي أن يـتـرك ما كان يـعـامـل به أهل الكتاب والمشركين ومظهري النفاق من العفو والصفح إلى قتالهم وإقامة الحدود عليهم سواءً سميّ هذا نسخاً أو لم يُسَمَّ"(2) .

3- احتمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المنافقين أذاهم قبل نزول براءة ما لم يحتمل من أذى الكفار وهو بمكة ما لم يكن يحتمل بدار الهجرة والنصرة(3) .

4- إن الآيات مثل ((وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)) [الفرقان:63] ، ((وأن تَـعْـفُــوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)) [البقرة:237]، ((وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ)) [القصص:55] ، إن هذه الآيات لا دليل على نسخها بالآيات التي تدعو إلى قتال المشركين والغلظة عليهم ، وأمثال ذلك مما وردت به السنة النبوية، ولا يقول بالنسخ إلا من يتوهم التعارض في ذلك ، مـمـن خفي عليه حسن اختلاف الأمرين عند اختلاف الـحـالـيـن ، ولذلك أنزل الله الـكــتــاب والحديد وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نبي الرحمة والملحمة (4) .

ولا يظن ظان أن اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين هو تغيير لأحكام الله أو انحراف بها عما وضعت له ، فالأحكام الثابتة المفروضة لا تتغير إلى يوم القيامة ، ويبقى هــنـــاك أمور يراعى فيها حال المسلمين من الضعف أو القوة في كل عصر ، ولا يعقلها إلا العالمون..

الهوامش :

1، 2، 3: انظر ما كتبه ابن تيمية حول هذا الموضوع في (الصارم المسلول) ص 189 -239 /224

4- محمد بن إبراهيم الوزير: العواصم والقواصم 1 / 172 .

زيارة البابا لبنغلاديش

الخبر :
زار بابا روما بنغلادش بتاريخ 19/11/1986 واستمرت زيارته يوماً واحداً ، ورافق البابا في زيارته وفد من الفاتيكان يتألف من 35 عضواً ، ويضم كاردينالين بينهم وزير خارجية الفاتيكان "كاساريلي" .
وتوجه البابا فور وصوله إلى "دكا" مباشرة من المطار لإقامة قداس في استاد تريب اكتظ بنحو 50 ألف شخص ، ودعا في موعظته إلى الحرية والعدل واحترام معتقدات الغير .

التعليق :
بنغلادش أو باكستان الشرقية من أفقر بلدان العالم ، وطالما استصرخ المسلمون فيها مشاعر إخوانهم في مختلف بلدان العالم الإسلامي فما وجدوا استجابة تستحق الذكر ، وفي المقابل نشطت المؤسسات التبشيرية في بنغلادش فشيدوا المدارس والمستشفيات والشركات والمؤسسات الاقتصادية التي عرف القائمون عليها كيف يستغلون حاجة المعدومين ويتلاعبون بعواطفهم ، ومن الأمثلة على ذلك أن هناك شركات اقتصادية تبتاع السمك من الصيادين بثمن بخس ولكن البائعين لا يعرفون لولا هذه الشركات كيف يبيعون السمك ، وهذه الشركات تعلب السمك ثم تصدره فتربح أضعاف التكلفة ، وهذه الأرباح ترصد لتنصير المسلمين ، وبالفعل يتزايد عدد الذين يتنصرون في بنغلادش ، كما يحدث في معظم دول أفريقيا وجنوب آسيا وشرقها ، ولعل الله ييسر لنا تقديم دراسة عن أنشطة المبشرين في بنغلادش في أعداد قادمة إن شاء الله .
فمتى ينهض الدعاة والعلماء والمحسنون من سبات نومهم ، ويؤدون دورهم المطلوب ؟ ولن يؤدوا دورهم إلا إذا وحدوا صفوفهم ، وصدقوا مع ربهم ونبذوا الأهواء والأطماع والشقاق والنفاق .
وأما احترام معتقدات الغير والحرية والعدل ، فلا وجود لهذه الشعارات في الدول التي يتمكن فيها النصارى ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

زيارة غورباتشوف للهند

الخبر:
قام الرئيس السـوفـيـتـي "مـيـخـائـيل غورباتشوف" بزيارة للهند استغرقت أربعة أيام [من 25/11 إلى 28/11] وأعلن الجانبان عـن إجـراء مـحـادثات بينهما حول الأمن الآسيوى ، ونزع الأسلحة ، والسلام العالمي ، وقال غاندي [رئـيـس وزراء الـهـند] في حفل الاستقبال مخاطباً غورباتشوف :
إنك تحترم حيادنا ، ونحن نحترم التزامك بالسلام .
وعقد الزعيمان اجتماعين منفردين .

التعليق :

أي حياد هذا الذي يتحدث عنه الزعيم الهندي ؟! .
وأي سلام هذا الذي التزم أو سيلتزم به غورباتشوف ؟! .
وماذا دار في الاجتماعين المغلقين الذين عقدهما الزعيمان السوفيياتي والهندي ؟! .
وللإجابة على هذه الأسئلة علينا أن نستحضر بأذهاننا تهديدات غاندي لباكستان قبل الزيارة بأيام ، وأما حياد الهند ودعوتها إلى السلام فالأدلة على بطلان هذا الادعاء واضحة في موقف الحكومة الهندية من فصل باكستان الشرقية عن الغربية ، وفي احتلالها لمعظم أرض كشمير ، وفي اضطهادها المسلمين في الهند .
أما السلام الذي يدعو إليه الزعيم السوفيياتي فآثاره جلية لكل ذي بصيرة في أفغانستان المسلمة التي احتل الشيوعيون السوفيت أرضها منذ بضع سنين مما اضطر خمسة ملايين من الأفغان إلى الالتجاء إلى باكستان ، ومن أراد دليلاً على هذا السلام المزعوم فليقم بزيارة مخيمات المسلمين الأفغان في منطقة "بيشاور" الباكستانية .
أما الأحاديث التي دارت في الاجتماعين المغلقين الذين عقدهما الزعيمان السوفيياتي والهندي فيجب أن يتنبه إليها المسلمون في باكستان ، وعلى العلماء والدعاة أن يحذروا من الخطط التي يرسمها قادة السوفييات والهند .. وقد كانوا في جميع المؤامرات السابقة يداً واحدة ضد المسلمين في باكستان .

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

لبنان .. والإرهاب

حقائق يجب أن تعرف عن الحرب اللبنانية

المسلمون السنة هدف للإرهاب في لبنان وغيره

عجيبة هي الأخبار المتلاحقة التي تشهدها الساحة اللبنانية، وأعجب منها القلوب الجامدة التي يمتلكها أباطرة الطوائف في هذا البلد المنكوب ... فأنت تقرأ في الصحف أخبار المجاعة التي يئن من وطأتها جميع اللبنانيين وأن قيمة الدولار تزيد على 70 ليرة لبنانية، وأن أكثر من رب أسرة في الجنوب حاول بيع أولاده لأنه لا يجد من القوت ما يسد به رمقهم .. كما تقرأ في هذه الصحف أخبار تجارة المخدرات التي تدر "المليارات من الدولارات" على قادة الطوائف، وتشبه هذه الأخبار الأساطير، لكنها بكل أسف حقيقة ليس فيها شك ولاريب. وإذا كانت الحرب قد ضاعفت استيراد المخدرات وزراعتها، فهي موجودة قبل الحرب، وتعرف الحكومات المتعاقبة منذ القديم مَنْ من زعماء الطوائف يزرع المخدرات وفي أي أرض

يـزرعـها، ولكنها (أى الحكومات) أعجز من أن تتخذ موقفاً بل هي ليست أحسن حالاً منهم .
ورغم الفقر والمجاعة والبؤس فلا تزال الحرب في لبنان تلتهم الأخضر واليابس، وبينما كنا نعد مادة هذا العدد كانت أجهزة الإعلام العالمية تتابع أخبار الحرب الضروس التي تدور رحاها حول المخيمات في بيروت وجنوب لبنان .
إن ما يجري في هذا البلد يهم كل الـمـسلمـين لأنهم كالجـسـد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .
وقد رافق هذه الحرب الآثمة اختراق تشكيل من المقاتلات الإسرائيـلـية حاجز الصوت في العاصمة اللبنانية على ارتفاعات شاهقة، كما حلقت هذه الطائرات في طلعات استطلاعية فوق منطقتي الجبل والبقاع وجنوب لبنان، أي فوق أرض الـمـعركة لمراقـبـة الـقـتـال، بل وشاركت الزوارق الإسرائيلية المسلحة في قـصـف مـسـاكـن الفلسطينيين في مخيمات صيدا وصور ! كما رافق هذه الحرب العدوانية أيضاً اعتداءات من جيش لبنان الجنوبي الموالي لإسرائيل على المخيمات الفلسطينية .
ومما ينبغي التأكيد عليه أن هذه الحرب ليست حدثاً عابراً نتج عن أخطاء عادية ، وقد تسوى هذه الأخطاء وتطوى هذه الصفحة ، وتتصافى القلوب ، ويلتقي الطرفان على قتال العدو الصهيوني .. لا ، ليس الأمر هكذا ولا يستطيع القارئ فهم طبيعة هذه الحرب إلا إذا علم الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى :

هناك مؤامرة عالمية رهيبة ضد لبنان وقد شاركت الدول الكبرى وإسرائيل في رسم خيوط هذه المؤامرة، والحديث عن المؤامرة قبل الحرب كان يتطلب أدلة وبراهين ، وبعد أكثر من إحدى عشرة عاماً أصبحت الأدلة واضحة لكل ذي بصيرة ..لقد كشفت وثائق ومخططات، ونشرت مذكرات واستطلاعات صحفية كافية لفضح أهداف الولايات المتحدة وإسرائيل والاتحاد السوفييتي وغيرها من الدول الكبرى .
لقد قرأنا فيما قرأنا أن "بن غوريون" رئيس وزراء العدو الصهيوني السابق، و"موسى شاريت" وزير خارجيته، كانا قد تحدثا فيما كتباه من مذكرات عن ضرورة تقسيم لبنان إلى دويلات طائفية، وتحدث العالم أجمع عبر وسائل إعلامية عن جولات "هنرى كيسنجر" وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية السابق بين عدد من عواصم دول الشرق الأوسط، وقل مثل ذلك عن لقاءات قادة العدو الصهيوني أمثال: بيغن ، وبيريز ، وشارون مع معظم زعماء الطوائف في لبنان .
ونتيجة لهذه المؤامرة انفجرت الحرب في لبنان ، وكانت إسرائيل طرفاً فيها ضد المسلمين السنة وحدهم ، وعندما اجتاحت لبنان عام 1982 م استمرت في حصار بيروت حتى اضطرت منظمة التحرير إلى مغادرة لبنان .. ودبر

اليهود وحلفاءهم مذابح صبرا وشاتيلا ، ومما يجدر ذكره أن إسرائيل أصرت على مغادرة "الميليشيات" السنية في بيروت الغربية مع أنهم لبنانيون ..
وجملة القول فإسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وجميع الدول الكبرى لا يزالون يحركون هذه الحرب عبر عملائهم من الطوائف اللبنانية.

الحقيقة الثانية :

منذ بداية هذه الحرب وحتى كتابة هذه الأسطر هناك خطوط حمراء لا تستطيع أية جهة تجاوزها ، ومن الأمثلة على ذلك أن لإسرائيل خطاً أحمر في الجنوب لا تسمح بتجاوزه ، وبيروت الشرقية خط أحمر، وكذلك زغرتا، والضاحية الجنوبية ، والشوف وبعلبك، والبقاع، والجبل .. أما مناطق أهل السنة، فهي هدف لكل من يتدرب على استعمال الأسلحة ، ونذكر من الأمثلة على ذلك: طرابلس ، مخيم البداوي ، ونهر البارد ، وتل الزعتر، وصبرا، وشاتيلا، وبرج البراجنة، والكرنتينا، ومخيم عين الحلوة، والرشيدية ، والمية ومية ، وبيروت الغربية ، وأحياء السنة في صيدا والجنوب.. وكانت الطوائف مع إسرائيل تتناوب الاعتداء على مدن ومخيمات أهل السنة ، وكان غير اليهود أكثر يهودية [إن صح هذا التعبير] من اليهود .
قد يحصل خلل ويقع اعتداء على منطقة لغير أهل السنة .. والذي يحدث أن الاعتداء يتوقف فوراً، ويجلس الطرفان على مائدة المفاوضات، أما مناطق أهل السنة فلا يتوقف القتال إلا بعد الإبادة والتشريد أو الاستسلام التام .
وتفسير هذه الظاهرة لا يحتاج إلى تفكير طويل .. فالدول الكبرى التى اتفقت على دمار لبنان وتقسيمه حددت خطوطاً حمراء ، والذين ينفذون المؤامرة ملتزمون بالأوامر الصادرة إليهم.

الحقيقة الثالثة :

الدويلات الطائفية حقيقة قائمة في لبنان، لكنها غير معلنة بشكل رسمي ومنذ بضعة سنين والدول الكبرى تتعامل مع زعماء الطوائف كما لو كانوا رؤوساء دول، وفي طليعة هذه الدول الاتحاد السوفييتي الذي يمد بعض الطوائف كما يمد المليشيات الشيوعية واليسارية بأحدث الأسلحة سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر .. ونقول: الاتحاد السوفييتي شريك في المؤامرة لأن من بني جلدتنا من لا يفهم الأمور إلا بعد فوات الأوان، وربما لا يفهمها لا قبل الأوان ولا بعده ، أما دور الولايات المتحدة وإسرائيل فمعروف عند الجميع ..
ويتعامل أباطرة الطوائف مع بعضهم على هذا الأساس، وكل امبراطور يعرف حدود دولته، وإذا حدث خلاف ذلك تنشب حرب بين الدولتين ثم يتدخل الوسطاء .
وسبب الاعتداءات على المخيمات الفلسطينية هو حرص زعماء الطوائف على تنفيذ آخر بنود الاتفاقية، وآخر هذه البنود يقتضي أن لا يقوم لأهل السنة قائمة، وأن لا تكون لهم دولة .

الحقيقة الرابعة :

الأحزاب والحركات والهيئات العلمانية واليسارية التي يتزعمها قادة العلمانية واليسارية التي يتزعمها قادة ولدوا من أسر سنية . هؤلاء لا يثق بهم أباطرة الطوائف ولا يطمئنون إليهم رغم توددهم لأعداء الإسلام ، وهذه عقوبة من الله لهم في الدنيا ، فالذين سلموا من إسرائيل بَطَشَ بهم عملاُء إسرائيل عند احتلال بيروت الغربية ، ومن سلم منهم من القتل أو السجن خرج هائماً على وجهه في بلاد الله الواسعة .

وكذلك حال الفلسطينيين الذين تآمروا على قومهم في ساعات المحنة.. إنهم يعيشون حياة لا يحسدون عليها ، لكنهم فقدوا المروءة والنخوة ، وقبلوا حياة الذل والخيانة .

إن أعداء الإسلام يعرفون بأن السني، قد يتوب إلى الله من العلمانية والإلحاد ويقف في الصف المعادي لهم، ولهذا فهم لا يثقون به مهما نافق وداهن لهم .

الحقيقة الخامسة :

إن هؤلاء الأباطرة يحاربون أهل السنة بالأصالة عن أنفسهم، ونيابة عن إسرائيل والولايات المتحدة، وبقية الدول الكبرى ، ولهذا فهم يتقاضون راتباً لكل جندي من جنودهم ، كما يتقاضون مساعدات وأسلحة ثقيلة وخفيفة ، فضلاً عن تجارة المخدرات وممارسة سياسة السلب والنهب .. ومن يعتقد غير ذلك كيف يتصور أن تستمر هذه الطوائف أكثر من أحد عشر عاماً مع أن دولة من الدول تعجز عن الاستمرار في القتال والاستنفار طيلة هذه المدة .

وكيف يتصور إنسان يحترم عقله استمرار حصولهم على السلاح والذخيرة إذا كانوا مستقلين ولا يتلقون مساعدات من حكومات وأنظمة خارج لبنان .. وعلى كل حال فكل شيء في لبنان واضح بالأدلة والأرقام، والأباطرة فقدوا الحياء والخجل وأصبحوا لا يخجلون مما كانوا يتسترون عليه .

الحقيقة السادسة :

إن أباطرة الطوائف يتكتلون ضد أهل السنة رغم ما بينهم من تناقضات وخلافات، ويستطيع المنصف أن يتبين صحة ما نقول إذا استعرض الأحداث منذ بداية الحرب، وإذا كان لا يريد أن يتعب نفسه ، فليقرأ وليسمع ما نشرته وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام عن موقف الأباطرة في الأحداث الأخيرة، وعن موقف العدو الصهيوني من هذه الأحداث.

الحقيقة السابعة :

إن أهل السنة يدافعون عن أنفسهم في ظروف لا يحسدون عليها .. إنهم يلتفتون حولهم فيجدون العدو يحيط بهم من كل جانب داخل لبنان وخارجه وفي معظم الحالات يحققون انتصارات مهمة ، ولكن مساعدات الآخرين ووقوفهم إلى جانب العدو يغير مسيرة المعركة .. وبعد أيام أو أشهر تنتهي

الذخيرة ، ولا يجدون من يمدهم بها .. أو قد يُمْنَع عنهم التموين ، أو الماء ، أو المساعدات البشرية ، نعم قد تمنع هذه الأمور كلها لأنه لا طريق للوصول لأهل السنة المحاصرين إلا عبر اجتياز دولة طائفية ، وهذه الدولة ترفض الحياد إذا كان أهل السنة طرفاً في معركة من المعارك ، وتسارع إلى الانضمام لخصومهم ، ولهذا السبب سقط تل الزعتر ، والكرنتينا ، والمسلخ ، ومحيت هذه المناطق من الوجود ، كما سقطت طرابلس وبيروت الغربية ، وبرج البراجنة ، وصبرا وشاتيلا ، ومخيم نهر البارد ، ومخيم البداوي ، وسجل المجاهدون صفحات من البطولة لا تنسى ، كانوا يقاومون جيشاً غازياً ، كما يقاومون المليشيات الطائفية التي انضمت للغزاة ، ومنعت عنهم الماء والكهرباء والعلاج والغذاء ، ويقاومون أيضاً الخونة وضعاف النفوس الذين جندهم الغزاة منهم .. وقد حدث هذا في بيروت الغربية عند حصار الجيش الصهيوني لها ، كما حدث في طرابلس والمخيمات عموماً .

* * *

وبعد :

هذه هي الحقائق التي نستطيع على ضوئها فهم طبيعة الحرب اللبنانية قديماً وحديثاً ، حاضراً ومستقبلاً .

ومن هنا نستطيع أن نفهم أسباب الاعتداءات المتلاحقة ضد أهل السنة ، وآخر الذين تم اغتيالهم الشيخ صبحي الصالح -رحمه الله- ، وما كان يملك "ميليشيا" ، ولا كان زعيماً سياسياً ، وعلى نقيض ذلك كان يمثل الاعتدال بين أهل السنة ، وكانت له علاقات جيدة مع النصارى وغيرهم ، ومع ذلك لم يسلم ، وجاء اغتياله بعد محاضرة ألقاها خلال زيارة له في المغرب العربي تحدث فيها عن الإرهاب والإرهابيين ، وأنكر تبني الإسلام لمثل هذه الأساليب، والذين قتلوه مشوا بجنازته وكتبوا في صحفهم يشيدون بمآثره، ويننددون بالقتلة المجرمين ، وكم في لبنان من المضحكات المبكيات !! .

ونقرأ في الصحف، ونسمع في نشرات الأخبار من يتهم المسلمين بالإرهاب، والحقيقة نحن هدف للإرهاب الذي تمارسه إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، ومن يدور في فلكهم من الدول والطوائف، وهذه هي حالنا في : لبنان ، وفلسطين المحتلة، والحبشة، وأرتيريا، وتشاد، وأوغندا، وفي الهند وأفغانستان ، وداخل الاتحاد السوفييتي والفلبين ، وفي مناطق أخرى كثيرة من العالم الإسلامي .

نحن الذين من حقنا أن نطالب بوضع حد للإرهاب ومكافحة الإرهاب حقاً ، ويجب أن تسمى الأمور بمسمياتها الصحيحة فالخائن لا يمكن أن يكون بطلاً ، والسارق ليس شجاعاً والمعتدى عليه الآمن ليس إرهابياً .

ولا يزال بيننا بكل أسف من يخجل من قول الحقيقة لأنه -كما يزعم - لا يريد تقسيم الإسلام إلى سني وغيره ، ولا يريد أن نتهم بالطائفية ، أو لأنه لا يزال

يحسن الظن بالذين يقولون له بكل خبث : ماذا تريد فالعلمانيون يقاتلون علمانيين .. كذبوا والله فالبائسون الآمنون من الشيوخ والنساء والأطفال والشباب في طرابلس وبيروت الغربية والمخيمات ليسوا علمانيين ، وهؤلاء الذين يرددون هذه الشعارات ليسوا حياديين ، ومن جهة أخرى فعدونا يقاتلنا لأننا من أهل السنة ، وبعض الأغبياء من أهل السنة يريدون منا أن نموت ونحن صامتون حتى لا نتهم بالطائفية .

مسمار جديد في نعش الشيوعية

جاء في تقرير قدمه "اليكسي شكولنيكوف" رئيس لجنة الرقابة الشعبية أنه بعد 20 شهراً من تولي "ميخائيل جورباتشوف" سلطات الحكم لا يزال الاقتصاد المحلي عرضة لانعـدام الانضباط ، وأنه تم طرد »13« ألف مسؤول اقتصادي في غضون عام واحد بتهمة اســتـغـلال النفوذ .
وقال "شـكـولـيـنـكـوف" في كلمة أمام مجلس السوفييت الأعلى أنه تمت إدانة »100« ألف مسؤول آخر خلال الفترة نفسها بتهمة عدم الانضباط وتزوير الأوراق الرسمية والاختلاس.
وتضم لجنة الرقابة (4600) خلية تضم بدورها مليونين من العاملين . وأنشئ هذا الجهاز في إبريل عام 1984 .
وقال شكولينكوف : إنه تفقد في العام الماضي نشاط 7 محطات إقليمية للسكك الحديدية حيث اكتشف تزويراً في الأوراق الرسمية تتعلق بحوالي 7 ملايين طن من البضائع . وأضاف : إن عدداً كبيراً من موظفي هذا الفرع قد عزلوا من مناصبهم .
وأنتجت المصانع 350 ألف طن من المعادن من بينها (38) ألف كيلومتر من الكابلات بيد أنها لم تسجلها في الدفاتر مما شجع على حدوث سرقات على نطاق واسع .
وندد واضع التقرير باستغلال النفوذ في توزيع المساكن ونوعية البناء التي تدعو إلى الأسف فقال : إنه في مدينة الماتا [كازاخستان] استغلت إحدى لجان البلدية 26 عمارة سكنية، بينما كانت تنقصها تركيبات الغاز والكهرباء .
وأشار شكولينكوف الى أن إنتاج ملابس الأطفال انخفض خلال الخطة الثانية عشرة [1981 - 1985] بعد أن رأى الصناع أن هذا النشاط لا يدر أربحاً وفيرة ، وفيما يتعلق بأدوات المنزل فإن انتاجها انخفض في العام الماضي بنسبة 37 مليون وحدة عنه منذ عشرة أعوام .
نشرت الصحف هذا التقرير في 20/11/1986 نقلاً عن وكالة الأنباء : ا . ف . ب .
ونشرت الصحف [عن وكالات الأنباء] في 23/11/1986 الخبر التالي :

أعـلـن مــســؤولــون ســوفـيـيت أن ما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين عامل سيفتتحون مــشــروعــات عـمـل خـاصـة بهم العام القادم بعد الموافقة على قانون جديد يسمح للعامل السوفييتي بالعمل لحسابه الخاص ..
وختم المسؤولون السوفييت حديثهم بقولهم :
ليست هناك قيود على العمل الخاص في وقت الفراغ .

تعليق :

المسؤول الذي لا يؤمن بالله ولا يخشاه سوف يسرق، ويغش، وينهب، ولن يخشى صرامة القانون لأن الذين يشرفون على تنفيذ هذا القانون مثله ، لصوص ، وقطاع طرق ، والأرقام التي ذكرها "اليكسي شكولينكوف" متواضعة وغير صحيحة ومع ذلك فإنها تدل على أن النظام السوفييتي يعاني مشكلات مزمنة ، وتتفاقم هذه المشكلات يوماً بعد آخر ، ورغم السرية والكبت والإرهاب فقد اضطر المسؤول السوفيتي إلى الاعتراف بتراجع الإنتاج وكثرة الاختلاس .
والسماح لملايين العمال بالعمل في القطاع الخاص فيه دليل آخر على هزيمة النظام السوفييتي أمام الفطرة التي فطر الله الناس عليها .. ولا نقول : إن النظام الشيوعي قد فشل ، لا نقول هذا لأن الشيوعية التي تحدث عنها كارل ماركس لم تطبق في الاتحاد السوفييتي ، رغم الأخاديد التي حفرت والمجازر التي ارتكبت ، وملايين الأرواح التي أزهقت .
فالملكية الخاصة والبنوك والادخار وما إلى ذلك موجود في السوفييت منذ القديم ، وهذا الذي ذكرناه دليل جديد نتمسك به ونواجه به الشيوعيين الملاحدة في عالمنا الإسلامي ، الذين لا يفكرون إلا بعقول قادة الكرملين ... ومثل هذه الهزائم تأتي بعد تراجع الصين عن النظام الشيوعي ، وبعد فشل نبؤات ماركس وتروتسكي ولينين ويضاف إلى هذا كله ازدياد نشاط المسلمين في الاتحاد السوفييتي رغم سياسة الكبت والاضطهاد التي تمارس ضدهم .

مشاهداتي في بريطانيا

من طلب رضا الناس بسخط الله

د. عبد الله مبارك الخاطر

عرفته في بريطانيا شاباً طـمـوحـاً يتدفق حيوية وحركة .. جل همه أن يحصل على شهادة "دكتوراه" ثم يعود إلى بلده ليكون مدير جامعة أو وكيل وزارة أو وزيراً .
كان يحدثنا عن ثقته بنفسه وقدرته على استمالة الناس إليه .. فهذا المسؤول أقنعه بوجهة نظره، وذاك المدير أقام معه أطـيـب الـعـلاقات وأمـتـنها ..

وخلال إقامته في بريطانيا نهج طريقه المعروف، فأخذ يتقرب إلى مشرفه ويتملق له ، ويحاول إرضاءه بمختلف الوسائل والأساليب ولم يقصر "دكتور المستقبل" في إقناع أستاذه بأنه ليس رجعياً،ولا متديناً،وفضلاً عن هذا وذاك فهو معجب أشد الإعجاب بالإنكليز وجامعاتهم وتقدمهم العلمي .
وذات يوم أراد الأستاذ أن يمتحن مصداقية أقوال تلميذه،فدعاه إلى وكر من أوكار الخمور، وسارع "دكتور المستقبل" إلى تلبية الدعوة .. وظن الأحمق أن استجابته لطلب المشرف سوف تساعد على اختصار الوقت .
شرب "دكتور المستقبل" حتى الثمالة، وفقد توازنه،ولم يعد قادراً على ضبط أقواله وأفعاله .. أما المشرف فكان يشرب قليلاً ويتمتع برؤية تلميذه وهو يشرب لأول مرة . وهب أنه شرب كثيراً فلا فرق عنده بين الماء والخمرة ، لقد اعتاد شرب الخمر .
أما "دكتور المستقبل" فقد أخذ يعبر عن مشاعره الحقيقية نحو الإنجليز ، وراح يلصق بهم أبشع النعوت وأحطها ، والمشرف ينظر إليه ويؤمن على كلامه ويبتسم له ويخفي في نفسه ما لا يبديه .
ومضت الأيام ، وكلما قدم "دكتور المستقبل" فصلاً أخّره المشرف مدة طويلة ومملة، ثم يعيده لتلميذه طالباً حذف بعض الأمور وإضافة أمور أخرى وإعادة الصياغة لأن لغة الكاتب ركيكة .. وكان المشرف يغلّف حقده بقوله :
أريدك أن تكون دكتوراً ناجحاً، وسوف تستفيد كثيراً من هذه الفترة الطويلة التي تمكثها بيننا ، ولا يتخرج من جامعاتنا إلا الأفذاذ من الرجال .
وأخيراً بقي الطالب الطموح ضعفي المدة المحددة ، وذاق الويلات ، وأصبح يشك بمواهبه وقدراته .. وبعد التي واللتية نال شهادة الدكتوراه ، وقبل سفره جلس مع أستاذه المشرف يحدثه عن إعجابه بالإنكليز وجامعاتهم وتقديره لكل ما رآه عندهم ، فأجابه المشرف بكل خبث ودهاء : إن حقيقة رأيك بالإنكليز وأخلاقهم وعاداتهم سمعته منك في الخمارة قبل ثلاث سنين ، فحاول "الدكتور الجديد" أن يعتذر ولكنه أخذ يتكلم ويهذر ولكنه يعرف أن كلامه ليس مقنعاً ومن كان عاجزاً عن إقناع نفسه فكيف يقنع غيره .
أدرك الدكتور الجديد ورجل المستقبل في بلده لماذا غيّر المشرف أسلوبه ولماذا تضاعفت مدة الدراسة لكنه بكل أسف لم يدرك الأمور التالية :
من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس .
ولم يدرك أنه ((ومَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً *ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)) .
ولم يفهم - وهو المسلم - أن التنافس يكون على الأعمال الصالحة وليس على حطام الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة .
وليت هذه العقوبة الدنيوية تكون سبباً في هداية الدكتور وتوبته .. وليت أمثاله يتعظون .

معالم حول كتابة التاريخ الإسلامي (3)

محمد العبدة

تمهيد:

كان الحديث في المقال الأول عن أهمية التاريخ، والحاجة الملحة لكتابة تاريخنا من جديد تحقيقاً وصياغة بعيداً عن التعصب أو الحقد ، ونظرة الإسلام - من خلال القرآن والـسـنة - إلى أحداث التاريخ نشوءاً وتعليلاً ، والسنن التي تسير عليها هذه الأحداث . وتحدثـنا في المـقـال الثاني عن الأمة الإسلامية وخضوعها لهذه السنن كما هي حال الأمم الأخرى، ولكن هناك مميزات خاصة بها. وفي هذه العدد نتكلم عن بعض النقاط التي نريد توضيحها من خلال الأحداث العامة لتاريخنا .

نقلة أخرى :

دأب أكـثـر الـذين يكـتبون في التاريخ الإسلامي أو الذين يكتبون عن الإسلام بشكل عـام، دأبـوا على إظـهـار حالة العرب قبل الإسلام بصورة مـظـلـمة قـاتمة، وأنهم شـعـب همجي متناحر لا أهمية له بين الأمم، وله عادات سيئة في كذا وكذا، وأخلاق سيئة في كذا وكذا ونية هؤلاء الكتاب في الغالب حسنة لأنهم يريدون إظهار محاسن الإسلام وكيف انتقل بهذه الأمة إلى عز بعد ذل وعلم وتقدم بعد جهل وتخلف ، ولكن هذا التصوير غير صحيح في بعض جوانبه ، والإسلام لا يحتاج إلى مثل هذا الدفاع للأسباب - التالية :

أولاً : لم يكن العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام على ما يصوره هؤلاء الكتاب ، ولا نريد أن نتكلم عن عادات العرب الجاهلية وعبادتهم للأوثان، فهذا شيء معروف مشهور، ولكن نريد أن نبرز بعضاً من صفاتهم وعاداتهم التي هي من خصال الخير ، وأحرى أن تكون من الأخلاق التي تنهض بها الأمم أو ما يسمى (الأخلاق الأساسية) مثل :

أ- صدق اللهجة والبعد عن خلق الكذب والمراوغة ، أو الغش والخداع ، تلك الأخلاق التي تتصف بها الشعوب التي عاشت ردحاً من الزمن تحت الذل والقهر ، فهي ترضى بالدون وتلجأ إلى المكر والخضوع للحصول على مطالبها ، بينما نجد رجلاً مثل أبي جهل وهو في أشد المواقف حاجة للكذب يُسأل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيتكلم صادقاً معبراً عما في نفسه وذلك قبيل معركة بدر ، ويُسأل أبو سفيان صخر بن حرب قبل إسلامه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيصدق في حديثه ويربأ بنفسه عن الكذب . فإذا كان هذا وهم في جاهلية فكيف بعد إسلامهم ، ولذلك يحق للإمام الزهري أن

يغضب بعد أن اتهم في مجلس من المجالس بالكذب فقال : والله لو أن نازلاً من السماء نزل بِحِلِّ الكذب ما كذبت!
ب- الوفاء والإقامة على العهد : وقد قاموا بهذه الصفة أحسن قيام ، فما نقضوا عهداً لمن حافظ عليه ويرون الغدر والإخلاف من أقبح العيوب ، ولا ينسون فضل من أحسن إليهم ، والأمة التي لا تكون فيها هذه الصفات كيف تأمل في النهوض ؟ والأمة التي تعودت على اللؤم والغش والخداع لا تفلح أبداً ، والرجل الذي لا يعطي للكلمة حقها ولا يفي بعهوده ووعوده هو معول هدم وإن صلى وصام .
ج- الغيرة : وهي صفة محمودة جعلها الله في الإنسان سبباً لحفظ الأنساب ، وقد مدحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما قال : »ألا تعجبون من غيرة سعد أنا أغير منه والله أغير مني« (1) .
وقد قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ، وقد بلغ العرب من الغيرة شيئاً جاوز الحد وبالغوا في ذلك (2) .
ومن طباعهم الحميدة الكرم وهي صفة تدل على جودة معدن ونبل نفس ، والبخل والشح من أسوأ صفات الإنسان ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - »شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع«(3) والذي يضحي بماله قد يضحي بنفسه ، وقصص العرب في الكرم أشهر من أن تذكر ويكفي أن نعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أطلق سفانة بنت حاتم الطائي من الأسر لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وأما جودهم بعد الإسلام فهو أتم وأعظم ، ومن يتصفح أخبارهم من أمثال عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص وقيس بن سعد فسيجد العجب العجاب .
كما اشتهروا بالحلم الذي يدل على وفرة العقل ، وأما حبهم للشجاعة وتمدحهم بها فشيء يفوق الوصف حيث أغنوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن تعليمهم وتدريبهم على هذه الصفات ، بل وجدها مطبوعة فيهم فلما جاء الإسلام كانت (نور على نور) .
وشيء آخر : فقد كانت لهم عادات وأعراف أقرها الإسلام أو هي من الفطرة السليمة لأنها من بقايا إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ، وقد لا يتفطن لهذا الأمر بل لا يظن أن هذه العادات والأعراف كانت فيهم ، ومنها :
كانوا يفعلون أشياء من طهارات الفطرة كالاغتسال من الجنابة والختان وتقديم الأيمن في الشرب ، بل عاداتهم في المأكل والمشرب من أوسط العادات ولم يكونوا يتكلفون تكلف الأعاجم .
كانت قريش تقوم على سدانة الكعبة كما تقوم بالسقاية والرفادة فأقرها الإسلام .
كانوا يعتبرون "القسامة" وهي أيْمان معينة عند التهمة بالقتل على الإثبات أو النفي وقد أقرها الإسلام .
كانوا يعظمون الأشهر الحرم حتى يمر الرجل بقاتل أبيه فلا يحرك له ساكناً .

ثانياً- إن السنن التي وضعها الله في الكون تأبى أن يكلف شعب خسيس في أخلاقه ، وضيع في تصرفاته ، بمهمة تبليغ الدعوة وقيادة الأمم بعدئذ وأن يكونوا أصحاباً لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فإن الطالب الغبي الكسول لا يستطيع المدرس الناجح أن يصنع منه عالماً كبيراً أو قائداً فذاً ، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة ومن العبث وضياع الوقت أن يُفكّر بتحويل أردأ المعادن إلى أعلاها وأنفسها ، ولكن رغم وجود هذه الاستعدادات لدى العرب فإنهم لولا الإسلام لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، فالإسلام نقلهم نقلة أخرى ، نقلة بعيدة المدى ، لقد تحولوا إلى أمة تحمل رسالة وتنقل حضارة ، والصحابة - رضوان الله عليهم- كانوا يعلمون هذه النعمة ويشكرونها وقد قاموا بواجبها .

تجمع القوى في تناسق داخلي :

انساح المسلمون في الأرض يبلغون دعوة نبيهم، سواء كان هذا التبليغ بالكتاب أو الكتائب، وفتح المشرق والمغرب بسرعة مذهلة لا تزال تحير المؤرخين الغربيين فيعللونها بالعلل الواهية ، ولكننا نحن نعلم الأسباب التي جعلت هؤلاء الفاتحين يصلون إلى جنوب فرنسا بعد قرن من وفاة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - . نعلم أن سبب ذلك وحدة الوجهة ووحدة الهدف والفطرة السليمة لهذا الشعب الذي لم يكن بحاجة كبيرة لتعليمه الشجاعة وفنون القتال أو تعليمه الصبر والصدق والوفاء ، والمسلمون اليوم كثير يصلون ويصومون ويحجون ولكنهم يفتقدون هذه الصفات الأصيلة .

ولكن بعد هذه الفتوحات العظيمة كيف يصهر هذا المجتمع الجديد ، ويتكيف مع قواعد الإسلام وعادات هؤلاء الفاتحين ، أم يكون التأثير عكسياً فتنتقل عادات البلاد المفتوحة وبعض عقائدهم إلى المجتمع الجديد ، وأظن أن هذا ما كان يتخوف منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقد روي عنه أنه قال : »يا ليت بيني وبين فارس جبل من نار« لقد كان بعبقريته الفذة يحمل هموم اندماج هذه الشعوب في الإسلام ، وهذا أمر لاشك في صعوبته كما تفطن لهذا عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- حين أمر جيش مسلمة بن عبد الملك بالقفول وترك حصار القسطنطينية لأن الحصار قد طال وخشي عمر من فناء الجيش ، وحفظ المسلمين أولى من جلب أتباع جدد ، وعلى ضوء نظرات العمرين هذه نستطيع فهم حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : »دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم«(4) .

وعلى حسب فهمي للحديث - والله أعلم - إما أن يكون المقصود ترك الترك ابتداءً حتى يهضم المجتمع الإسلامي العناصر الجديدة قبل الانتشار إلى بلاد الترك ، أو كان تركهم بعدئذ والمقصود عدم التحرش بهم وكأنه إشارة إلى الغزو المغولي المدمر لأن الخوارزميين هم الذين تحرشوا بهم وحصل بعدئذ ما حصل من قدر الله الغالب .

فرض اللغة العربية :

فرض الفاتحون الأوائل اللغة العربية في كل مكان وصلوا إليه ، سواء كانت لغة للعلم الثقافة أو لغة للتخاطب اليومي ، وسواء كان حباً بها لأنها لغة الدين الجديد الذي اعتنقوه ولغة الذين كانوا وسيلة لهدايتهم ، أو مجاملة لهؤلاء الفاتحين الذين كان عندهم من الاعتزاز بدينهم وشخصيتهم ما يمنعهم من قبول رطانة الأعاجم ، بل يجب على هؤلاء الاعاجم أن يتعربوا كي يفهموا دينهم ، وأقبل المسلمون الجدد على تعلمها فعلاً وبشغف ونهم ، ولم تمض سنوات حتى كان منهم أكابر العلماء في شتى فنون المعرفة الإسلامية ، ولكن الدول التي جاءت بعدئذ تساهلت في هذا الموضوع ، بل إن مسؤولية هذا التساهل تقع على العلماء والمسلمين بشكل عام ، وعادت الأقاليم البعيدة إلى لغتها الأولى ونسيت اللغة العربية شيئاً فشيئاً ، وهذا شيء خطير لأنه من أقوى الأسباب في ضعف الروابط بين المسلمين ، بل إن وجهة الثقافة ستبتعد أيضاً لأنه لا يفهم الإسلام فهماً صحيحاً بغير العربية .
إن اكبر خطأ ارتكبته الدولة العثمانية هو عدم تبنيها اللغة العربية كلغة ثقافة وعلم وتخاطب يومي ، بل إن هذا الخطأ يعبر من مقاتل هذه الدولة . ونتيجة لذلك ضعف العلم والإبداع ، بل وصلت الأمور في أواخر عهدها إلى حالة مزرية من الجهل والتخلف وهذا الأمر وإن كان قد تنبه له بعض العلماء والمؤرخين أو ممن كتب عن الدولة العثمانية ولكنه لم يعط الأهمية المناسبة عند من يكتبون في التاريخ الإسلامي ، فنراهم يبرزون حسنات هذه الدول ولا يحبون ذكر أخطائها لما قامت به من جهود للدفاع عن العالم الإسلامي ، ولكن هذا شيء لابد من ذكره .

حضارة إسلامية :

انقسم الناس بعد الاستقرار والهدوء اللذين أعقبا الفتوحات إلى الأقسام التالية :
1- الفاتحون وأكثريتهم من العرب وهم قسمان :
أ- قسم يعتزون بإسلامهم ولغتهم ويعتبرون أنفسهم رسل هداية وليس عندهم نظرة قومية للشعوب الأخرى مع احتفاظهم بأنسابهم وقبائلهم واعتزازهم بها لأن ذلك لا يتعارض مع دينهم .
ب- قسم ضيق الأفق رجعت إليهم بعض نعرات الجاهلية فهم لا يعتزون بأنسابهم وقبائلهم فقط بل يحتقرون الآخرين لمجرد أنهم غير عرب ولو كانوا من أصحاب الفضل والدين .
2- الشعوب الأخرى من الفرس والترك والبربر ... وهؤلاء ثلاثة أقسام :
أ- أناس أسلموا عن طواعية واختيار وأصبح الإسلام هو نسبهم وهو الشرعة والمنهاج ، وهم مع ذلك لا ينكرون فضل العرب الذين بلغوهم الدعوة ، وهم أنفسهم تعربوا باللسان حباً في هذا الدين وأهله وطمعاً في فهم الشريعة .

ب- أناس أسلموا ولكن نعرة الاعتزاز بتراثهم القديم والفخر بحضارتهم السابقة لا تزال فيهم .
ج- والبعض منهم تظاهر بالإسلام وهو يبطن الزندقة والمجوسية ويكره الإسلام والعرب ولذلك بدأ يبث سمومه بخبث ومكر ودهاء .
ولاشك أن أكثرية المجتمع كانت من الأقسام المعتدلة التي انصهرت بالإسلام وعاشت به ومن أجله سواء كانوا من العرب أو العجم ولكن البعض عندما يتكلم عن الدولة الأموية يضخم مشكلة (الموالي) وأنهم كانوا مضطهدين وينظر لهم بازدراء ، نعم هناك بعض العبارات من الأمراء والكبراء تدل على هذا أو تصرفات خاطئة ظالمة مثل تصرفات الحجّاج ، ولكنني أعتقد أن الدولة الأموية ما كانت لتستطيع في ظروفها تلك إلا أن يكون كبار الأمراء وقواد الجيوش من العرب ، وعندما رفعت الدولة العباسية شعار المساواة استغل الفرس الشعوبيون هذا الشعار أحسن استغلال وأرادوا الهدم من الداخل ، وقد تنبه الخليفة الرشيد لهذا فكانت ضربته المشهورة للبرامكة ، فإذا كانت هناك مشكلة الموالي ففي المقابل هناك شيء أخطر وهو ما سمي بمشكلة (الشعوبية) ، وهم الذين تنغل صدورهم بالحقد على الإسلام ومن أتى بهذا الإسلام ويعنون بذلك العرب واستعملوا شتى الأساليب والوسائل من فكرية وأخلاقية فألفوا الكتب والرسائل(5) وحاولوا إفساد الشخصية الإسلامية بإشاعة الفاحشة والمجون(6) وأخيراً استعملوا الإرهاب فلجأوا إلى الاغتيال ، فهل خطورة مشكلة الموالي كخطورة الشعوبية التي جُنّد العلماء والجيوش للرد عليها(7) ، واضطر المعتصم العباسي لتجييش العساكر لمقاومة حركة بابك الخرمي .
ولكن النظرة الإسلامية الواسعة التي تقبل الحق من أي مصدر كان ، هي التي انتصرت أخيراً على النغمة الشعوبية الحاقدة الضيقة ، وغلب تيار الفقهاء والمحدثين وأخذوا بالنظرة الواقعية رغم أنهم مقتنعون بأن (الأئمة من قريش) كما جاء في الحديث الصحيح ، فتولى قيادة المسلمين رجال من أمثال نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس الذين تصدوا للهجمات الصليبية والمغولية ، ورجال قادوا الفتوحات لنشر الإسلام من أمثال محمود الغزنوي ومحمد الفاتح وهؤلاء كلهم يمثلون الحضارة الإسلامية بأوسع معانيها دون تعصب وانغلاق ، ومثلهم الأعلى الصحابة الذين خرجوا من الجزيرة العربية يبشرون بالإسلام .
* يتبع *

الهوامش :

1- سنن الدارمي ، كتاب النكاح 2/149 .
2- انظر ما كتبه محمود شكري الآلوسي عن صفات العرب ومآثرهم في كتابه : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب .

3- أخرجه أبو داود في باب الجهاد وهو صحيح .
4- صحيح الجامع الصغير 3/145 ، وهو حديث حسن .
5- مثل كتب أبو عبيدة معمر بن المثنى عن مثالب العرب أو ترجمة ابن المقفع لكتب الفرس التي تشيد بحضارتهم وحكمتهم ومحاولتهم لإحياء المزدكية والمانوية .
6- مثل أشعار بشار بن برد ومجون أبي نواس وحماد عجرد ومطبع بن إياس .
7- تصدى أمثال ابن قتيبة والجاحظ والبلاذري للرد عليهم أما الفقهاء والمحدثون فوجودهم أكبر رد عملي عليهم بل هم شوكة في حلوقهم .

أدب وتاريخ

مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي (3)

محمد الناصر

ملخص ما سبق نشره:

في الحـلـقـة الـسـابـقـة عـرض لـنـا الـكـاتـب طـرفـاً مـن حـيـاة العرب في الجاهـلـية، من خلال استعراض شعرهم الذي حفل بدقيق حياتهم وجليلها ، فذكر المصنفات من القصائد ومشاركة الهجاء والرثاء في إذكاء نيران الحروب المـشـبـوبـة، وكـذلك مـا حـفـل به الشعر الجاهلي من وصف تفصيلي لطرق القتال وأدواته كالسيوف والرماح والخيل ، وهو غالب أغراض شعر الشعراء الفرسان ، وفي هذا الجو كانت تكثر الأسرى والسبايا ، وكذلك وجد من الشعراء من يغلب عليه جانب الحكمة والأناة ، فيضمن شعره الدعوة إلى نبذ الحروب ووصفها الوصف الذي ينفر الناس منها ويجعلهم يطيلون التفكير قبل خوض غمارها .

4 - الأحلاف:

وفي هذه البيئة الحربية التي كان يشيع فيها الفزع والهول ، ويعم فيها الاضطراب ، كان الفرد يبحث عن الأمن في ظل القبيلة ، وكانت هذه القبيلة تلجأ إلى التـحالف مع القبائل الأخرى ، إذ تنضم العشائر الضعيفة إلى الـعـشـائـر الـقـويـة الكـبيرة لـتـحـميها وترد عنها العدوان .
وربما آثرت القبيلة بدافع المصلحة أو الجوار أو الضعف هذا الحلف ، بمجرد أن تدخل الـقـبـيـلــة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق فهم ينصرونها على أعـدائـهـا ، ويردون كـيـدهم عنها ، وكثيراً ما كنا نجد أحلافاً تضعف لتحل محلها أحلاف أخرى ، وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف لقوتها وسميت لذلك باسم جمرات العرب ، منها: بنو عامر بن صعصعة، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة، وبنو عبس، فإذا تحالفت أطفئت (1) .

وكانت هذه القبائل تتفاخر بنفسها لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها لقوتها وكثرة عددها.
وكانت بعض القبائل تشرك مواليها معها في حروبها كما فعلت مذحج في يوم الكلاب، وإلى ذلك يشير ربيعة بن مقروم في حرب مذحج مع تميم:(2)
وساقت لنا مذحج بالكُلاب مواليها كلها والصّميما
وكذلك فعلت قريش عندما فُتحت مكة المكرمة إذ استعانوا بالأحابيش لمعاونتها .
والأحلاف مـأخـوذة مـن الحـلِـف وهو اليمين ، إذا كانوا يوثقون هذا الحلف بالدم أحياناً ليحل محل النسب ، ومن هؤلاء حلف لعقة الدم (3) .
وأحياناً كانوا يوثقون بالماء كما حـصـل فـي حلف الفضول (4) ، وسببه أن رجلاً من اليمن قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل ولم يعطه الثمن فوقف على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ونادى بأعلى صوته:
يا آل فــهر لـمــظـــلـوم بـضاعتــه ببـطــن مـكـة نائـي الـدار والنفر
ومـحـرِمٌ أشـعـث لم يقــض عـمرته يــا للرجال وبين الحِجر والحَجر
فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عـبـد الله بن جدعان وتحالفوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إلـيـه حـقـه ، ثــم مشوا إلى العاص بن وائل وانتزعوا منه سلعه الزبيدي فدفعوها إليه.
وفي السيرة النبوية لابن هشام: أن طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعي به في الإسلام لأجبت " .
ويعتبر هذا الحلف من خير أحلاف الجاهلية لأنه كان نصرة للمظلوم وردعاً للظالم .
أما حلف المطيبين فقد غمسوا أيديهم بجفنة فيها طيب ، وهم الـقـبـائـل التي ناصرت بني عبد مناف ضد بني عبد الدار ومن حالفهم ، إلا أنهم اصطلحوا على أن تـكـون الـرفــادة والـسـقـاية لبني عبد مناف ، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار فانبرم الأمر على ذلك واستمر (5) .
وكانوا أحياناً يتحالفون على النار ، ولعل ذلك سرى إليهم من المجوسية الفارسية ، ومن هؤلاء حلف المحاش ، كما فعلت قبائل مرة بن عوف الذبيانيين حينما تحالفوا عند نار ودنوا منها حتى محشتهم فسموا بذلك (6) .
ونجد الشعر الجاهلي عند كبار الشعراء ، مخلداً هذه الأحلاف مبيناً أهميتها .
فالنابغة الذبياني يدافع عـن حلف قومه ذبيان مع بني أسد ، إذ حاول عيينة ابن حصن زعيم ذبيان أن يـنـقـض هـذا الحلف ويتعاون مع خصومهم من عبس فقال النابغة قصيدة طويلة يخاطب فيها عيينة منها(7):
إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لستُ منك ولستَ مني
ثم يمدح بني أسد ويعدد مآثرهم ويكون وفياً لحلفائه إذ يقول:
فهم درعي الـتـي استلأمت فـيـهـا إلى يوم الـنّـســار وهــم مجنّي

وهم ساروا لحِجرٍ في خميس وكانوا يوم ذلك عند ظني
إلى أن يقول:
ولو أني أطعتك في أمور قرعت ندامة من ذاك سنّي
وبشامة بن الغدير يحرض قومه بني سهم بن مرة على ألا يخذلوا حلفاءهم الحُرقة وألا يتركوهم وحدهم أمام غطفان .. وأكد الحلف وشده الحصين بن الحمام المري .. وذكر بشامة هذا الحلف في قصيدة منها (8):
فإمّا هلكتُ ولم آتهم فأبلغ أماثلَ سهم رسولا
بأن قومكم خيروا خصلتين كلتاهما جعلوها عدولا
خزي الحياة وحرب الصديق وكلٌ أراه طعاماً وبيلا
ويعتبر الحصين بن الحمام المري من أوفياء العرب وكان سيد قومه وذا رأي وقيادة .. وفي نصرته لحلفائه وجيرانه يقول (9):
ولما رأيت الود ليس بنافعي وأن كان يوماً ذا كواكبَ مظلما
صبرنا وكان الصبر فينا سجية بأسيافنا تَقطَعن كفاً ومِعصَما
يفلِّقن هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما
لقد أعز العرب حلفاءهم ، إذ كان الحليف يعتبر من العشيرة حتى أن قريشاً كانت تترفع عن تزويج بناتها من غيرها إلا إذا كان من حلفائها .
وافتخروا بحماية الجار حتى قالوا: فلان منيع الجار حامي الذمار (10) لأنها دليل على القوة والرهبة . قال عبيد ابن الأبرص (11):
نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلف بين أرامل الأيتام
ولم يكن من السهل أن ينقض حامٍ ذمة عقدها لجاره فإنهم كانوا إذا غدر فيهم أحد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به ، وفي ذلك يقول قطبة بن أوس بن محصن (الحادرة):
أسُمَيُّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ رفع اللواء لنا بها في مجمع
إنا نعف فلا نُريب حليفنا ونكف شح نفوسنا في المطمع(12)
ويذكر الميداني أنهم كانوا يقولون: الدم الدم والهدم الهدم ، يعني أبايعك على أن دمي دمك وهدمي هدمك (13).
وهكذا كانت أحلافهم مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس ، في بيئة الحرب والقتال ، وسط صحراء ملتهبة وقبائل متناحرة ، ونادراً ما كانت الأحلاف دفاعاً عن المظلوم ، كما هي الحال في حلف الفضول .

5 - أيام العرب:

كان العرب يسمون حروبهم أياماً ، لأنهم يتحاربون نهاراً ، فإذا حل اليوم الثاني عادوا إلى القتال ، وتسمى هذه الحروب والأيام غالباً بأسماء الأماكن التي وقعت فيها مثل يوم الكلاب ، وعين أباغ ، وذي قار ، وبأسماء الأشخاص أو الحوادث البارزة فيها ، كيوم البسوس ، ويوم حليمة ، وأيام داحس والغبراء ، أو باسم الصفة التي تميزت فيها كيوم تحلاق اللمم ، ويوم الفجار .

وأيام العرب كثيرة بحيث يقال (14): إن أبا عبيدة مـعـمـر بن المثنى (توفي 211 هـ) ألف كتاباً جاء فيه ذكر مائتين وألف يوم ، ولم يصل إلينا هذا الـكـتـاب ، ولـكـن كتابه شرح النقائض حفظ طائفة كبيرة من تلك الأيام ، وفي كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الأول طائفة كثيرة منها وكذلك كتاب الأغاني والعقد الفريد .

(تعتبر هذه الأيام في الجاهلية مصدراً خصيباً من مصادر التاريخ ، وينبوعاً صـافـيـاً مـن ينابيع الأدب ، ونوعاً طريفاً من أنواع القصص بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث وما روي في أثنائها من نثر وشعر) .

(وهي مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم ، وأسلوب الحياة الدائرة بينهم .. في الحرب والسلم ، والاجتماع والفرقة والفداء والأسر)(15).

لقد امتلأت كتب الأدب، ودواوين الـشـعـر، بشعراء ندبوا الصرعى والقتلى من أشرافهم، وذبـوا عن أحـسـابـهـم ، أو هـجـوا خصومـهـم ، كعنترة بن شداد ، وعامر بن الطفيل ، والمهلهل بن ربيعة وغيرهم.

إن الحروب الدامية كانت سمة العصر الجاهلي ، وهـي كـثـيرة ، وسوف نشير إلى الأيام المشهورة بين قبائل العرب المختلفة ، كنماذج توضح لنا القصد ، وتجلو لنا العبرة .

1 - فمن أيام العرب والفرس:

أ - يوم الصفقة (16): (ويسمى أيضاً يوم المشقّر) .

وكان لكسرى على تميم ، حيث إن كسرى أصفق على بني تميم الباب في حصن المشقّر ، وهو حصن في البحرين إذ خُدع الناس بالميرة وصاروا يدخلون رجلاً رجلاً إلى عامل كسرى على البحرين (المكعبر) وهو فارسي ... حتى انتبه أحد بني تميم وقال: يا قوم أين عقولكم فوالله ما بعد السلب إلا القتل وضرب بسيفه سلسلة كانت على باب الحصن فقطعها وانفتح الباب ، وإذا الناس يُقتلون فثارت بنو تميم وفي ذلك يقول الأعشى يمدح هوذة وهو رجل من بني حنيفة أشار على كسرى بفكرة الميرة وحيلة الحصن (17):

سـائـل تميماً به أيام صَفـقَـتهم لمّا أتــوهُ أســارى كـلهم ضَـرعَــا
وسطَ المشَقَّر في عيطاءَ مـظـلـمـةٍ لا يـسـتـطـيعون فيها ثَمَّ ممتَـنَـعـا
أصابهم من عقـاب المـلك طائفةٌ كل تميم بما في نفسه جُدِعا (18)

وهي قصيدة طويلة يمدح فيها هوذة ابن علي الحنفي ، ويعتبر أنه خلص مائة من خيارهم ... وذلك عندما علم هوذة بدخول بني تميم الحصن .

ب- يوم ذي قار (19):

وهو من أهم الأيام بين العرب والفرس ، وذو قار ماء لبني بكر بن وائل قريب من الكوفة ، ومن أسبابها: أن كسرى كان قد غضب على النعمان بن المنذر ، أمير الحيرة ، بسبب عدي بن زيد الذي قتله النعمان ، في قصة طويلة ثم فر بعدها النعمان وحاول أن يلتجيء إلى قبائل العرب ، إلى أن استودع ودائع عند

العرب ، ووضع أهله وسلاحه ودروعه عند هانيء بن قبيصة بن هانيء ابن مسعود الشيباني ، ثم جاء رسول كسرى بالأمان على النعمان ، فخرج الأمير حتى أتى كسرى في المدائن فأمر به فحبس فمات في حبسه ، أو قتل تحت أرجل الفيلة ، وعين بدلاً منه على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي .
بعث كسرى إلى هانيء الشيباني: إن أموال عبدي النعمان عندك فابعث بها إلي ، فاعتذر هانيء بأنها أمانة ولن يسلمها.
جهز كسرى عندها جيشاً عقد فيه للنعمان بن زرعة التغلبي على تغلب والنمر ، ولخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وإياد ، وعقد لإياس بن قبيصة الطائي على بقية العرب ، فكانت العرب ثلاثة آلاف ، وعقد للهافَرز على ألف من الأساورة (20).
وبعث كسرى معهم اللطيمة (21) ، وكانت تخرج بالبضائع ، وأمرهم إذا شارفوا بلاد بكر ودنوا منها أن يبعثوا النعمان التغلبي يخيرهم بين ثلاث: إما أن يعطوا السلاح وما بأيديهم ويحكم فيهم الملك بما شاء ، وإما أن يتركوا الديار ، أو أن يأذنوا بحرب .
وكان كسرى قد أوقع ببني تميم يوم الصفقة والعرب خائفة منه وجلة .
اجتمعت قبائل بكر في بطحاء ذي قار ، وعينوا حنظلة بن ثعلبة العجلي قائداً على حربهم ، وأخرجت الدروع وفرقت في القوم المحاربين .
ولما تقارب الزحفان قام حنظلة وقطع وضن الهوادج (22) فسقطن على الارض. . . وقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته ، ثم ضرب على نفسه قبة في بطحاء ذي قار ، وآلى لا يفر حتى تفر القبة .
ثم احتدم القتال بين العجم ومن معهم من العرب وبين قبائل بكر بن وائل ومنهم بنو شيبان وبنو عجل وغيرهم . وقتل الحوفزانُ الهامرزَ مبارزة ، ثم أرسلت قبيلة إياد إلى بكر تخيرها إما أن تهرب وتترك جيوش كسرى ، أو تفر حين ملاقاة القوم ، فعندما التقى الناس انهزموا وفتوا في عضد الأعاجم ومن والاهم ، وانهزمت الفرس وأحلافهم .
واتبعتهم بكر يقـتلون بقـية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ثم دخلوه في طلب القوم .
وقد ذُكر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما بلغه نبأ انتصار ربيعة قال:" اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نُصروا " (23) .
وفي هذا اليوم يقول أعشى قيس مفتخراً (24):

لما الـتـقـينا كـشـفـنا عـن جـماجـمـنا ... لـيـعــلـمـوا أنــنــا بـكرٌ ، فـيـنصرفوا
وجند كسرى غداةَ الحِنْو(25) صبحهم ... مـنـا كـتـائـبُ تزجي الموت فانصَرفُوا
لـــو أنّ كـــل مَـعَـدٍ كان شـاركــنــا ... في يـوم ذي قـار مـا أخـطـاهمُ الشرفُ

فالحرب إذن كانت قبلية ، لا عربية فارسية ، بكر بن ربيعة وليست قبائل معدّ كلها التي ساهمت في هذا القتال وفي جانب الفرس كانت قبائل عربية كبيرة كتغلب وطيء قد شاركت في هذا اليوم ، متزلفة لكسرى ، ومنتقمة من بكر العربية .

وقال الأعشى أيضاً يمدح بني شيبان لأنهم كانوا من أحسن الناس بلاء قصيدة طويلة منها(26):

فدى لبني ذهل بن شيبانَ ناقتي وراكُبها يومَ اللقاء وقَلّتِ (27)
همُ ضربوا بالحنو ، حنوِ قُراقرٍ مقدمةَ الهامَرْزِ حتى تولّتِ (28)
تناهتْ بنو الأحرارِ إذ صبرتْ لهم فوارسُ من شيبانَ غُلبٌ فولّتِ (29)

وفي الأصمعيات قصيدة طويلة قالها عمرو بن الأسود تحدث فيها عن ذي قار ، ووصف حومة الحرب وتساقط الفرسان ثم سرد أسماء القبائل المشتركة في هذه الحرب (30) .

2- أيام القحطانيين فيما بينهم(31) :

أ- ما بين المناذرة والغساسنة :

كانت أيامهم كثيرة لأنهم صنائع للفرس والروم من جهة ، ولأنهم قبائل متناحرة من جهة أخرى ، حسب النظام القبلي السائد بينهم آنذاك ، ومن أهمها:

يوم عين أُباغ :

وهي واد وراء الأنبار ، التقى فيه الحارث الأعرج بن جبلة ملك الغساسنة بالمنذر بن ماء السماء ملك المناذرة في الحيرة ، حيث أن المنذر كان قد سار في قبائل معدّ كلها ، إلى الحارث ، بعد أن أرسل إليه يطلب منه الفدية لينصرف بجنوده ، أو أن يأذن بحرب ، ثم التقى الجيشان، وبدأت الحرب بالمبارزة إذ أخرج المنذر وقدم علم الحارث بالخدعة، وانهزم جيش المناذرة بعد أن قتل المنذر في هذا اليوم ، ثم سار الحارث وجيوشه إلى الحيرة فنهبها وأحرقها .

وقد وصف هذه الحرب عديُّ بن رعْلاءَ الغساني إذ يقول: (32)

ربما ضربةٍ بسيفٍ صقيل دونَ بصرى وطعنة نجلاء(33)
وغموسٍ تضل فيها يدُ الآ سي ويعيا طبيبها بالدواء(34)
فصبرْنَ النفوس للطعن حتى جرتِ الخيلُ بيننا في الدّماء

إلى أن يقول في شأنِ من تركته الحرب سليماً معافى في ثياب من الذل فحياته ليست إلا موتاً ، وسار البيتان مسير الحكمة لكل حياة ذليلة رخيصة :

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ إنما المَيْتُ ميِّتُ الأحياء
إنما المَيْتُ من يعيشُ ذليلاً سيئاً بالُهُ قليلَ الرجاءِ

حاول المنذر بن المنذر أن يثأر لأبيه فكان يوم حليمة ، وفي هذا اليوم ضرب المثل : ما يوم حليمةَ بسرّ والتقى الجيشان في مرج حليمة ، ومكثت الحرب

أياماً ينتصف بعضهم من بعض إلى أن دعا الحارث ابنته واسمها حليمة وكانت من أجمل النساء ، وأعطاها طيباً لتطيب مَنْ يمر بها من جنده ثم نادى : يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي .. وانهزمت لخْم وجيش المنذر ، وقتل المنذر على يد لبيد بن عمرو الغساني ثم قُتل هو أيضاً ، وانصرفت غسان بأحسن الظفر بعد أن أسروا كثيراً ممن كانوا مع المنذر من العرب ، وكان منهم مائة من بني تميم فيهم شأس بن عبدة ، ولما سمع أخوه علقمة الفحل وفد إلى الحارث الغساني مستشفعاً وأنشده قصيدة . طويلة مطلعها(35) :

طحا بك(36) قلبٌ في الحسان طروبُ بُعيْدَ الشبابِ عصر حان مشيبُ

ثم يمدح النعمان ويُنَوِّه بمواقفه في الحرب ، وذكر الشؤم الذي أصاب أعداءه بسبب التقتيل والهزيمة ومن ثم طلب إنقاذ أخيه من الأسر يقول منها:

فوالله لولا فارسَ الجَوْن منهم لآبوا خزايا ، والإيــاب حبيبُ(37)

فقاتلتَهم حتى اتقوك بكبشهم وقد حان من شمس النهار غروبُ(38)

وفي كل حي قد خبطتَ بنعمة فحُقَّ لشأس من نداك ذَنوبُ(39)

ولما بلغ قَولَه : فحق لشأس من نداك ذنوب . . . أمر الملك بإطلاق شأس وسائر أسرى بن تميم.

ب- الحروب ما بين الأوس الخزرج :

كانت الحروب كثيرة بين هاتين القبيلتين ومن أهمها :

حرب سُمَيْر :

وسببها أن رجلاً من ذبيان اسمه كعب من بني ثعلبة نزل على مالك بن العجلان الخزرجي وحالفه وأقام معه . ثم خرج كعب إلى سوق بني قينقاع فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب . فقال الناس فلان أو فلان حتى قال كعب : مالك بن العجلان أعز أهل يثرب ، وكثر الكلام ، ثم قبل الرسول قول كعب الثعلبي ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان الخزرجي .. فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفي أفضلكم؟ فغضب رجل من الأوس يقال له : سمير بن يزيد وشتمه ثم افترقا :

قصد كعب سوقاً لهم بقباء فقصده سمير وقتله ..

طالب مالك بن العجلان بقتل سمير أو بدية حليفه .. رفضت الأوس أن تدفع إلا دية الحليف وهي النصف .. حكموا بينهم عمرو بن امرئ القيس جد عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه- وهو خزرجي فقضى بنصف الدية .. رفض مالك واستنصر قبائل الخزرج .. وزحفت الأوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير والتقوا قرب قباء واقتتلوا قتالاً شديداً وانصرفوا ثم التقوا ثانية واقتتلوا حتى حجز الليل بينهم وكان الظفر للأوس على الخزرج .

واستمرت الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة في أمر سمير يتعاودون القتال ، وكثرت أيامهم ومواطنهم .. كيوم حاطب(40) ، ويوم كعب ، ويوم بعاث ، وغيرها .
وأخيراً حكموا بينهم ثابت بن المنذر ابن حرام والد حسان بن ثابت -رضي الله عنه- وحكم بأن يؤدي حليف مالك دية الصريح ثم تكون السنَّة فيهم بعده ما كانت عليه ؛ الصريح على ديته ، والحليف على ديته ، وان تعد القتلى وتعطى الديات لمن زاد قتلاهم فرضى مالك وسلمت الأوس وتفرقوا .
ومن أواخر أيامهم المشهورة :

يوم بُعاث :

وسببه أن سيد الخزرج وهو عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه: إن أباكم أنزلكم منزلة سوء والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير ، وأقتل رهنهم (41) وأرسل إلى يهود في ذلك، وهموا بالخروج من ديارهم حتى نهاهم كعب بن أسيد القرظي، واعترض عبد الله بن أبي بن سلول على هذا الأمر ثم التقت الأوس ومعها حلفاؤها من اليهود ، مع الخزرج ومعها حلفاؤها من أشجع وجهينة ، وكان القتال شديداً دارت الدائرة فيه على الخزرج وأحرقت دورهم ونخيلهم من قبل الأوس وأجار سعد بن معاذ أموال بني سلمة جزاء معروف سابق لهم يوم الرعل .
وفي هذا اليوم يقول أبو قيس بن الأسلت (وهو من شعراء الجاهلية المجيدين وسيد الأوس وصاحب حربها في يوم بعاث) ، وقد عاد إلى امرأته بعد أن مكث في الحرب أشهراً حتى شحب لونه وتغير فدق الباب، ولما فتحت له زوجته أنكرته وقال: أنا أبو قيس، فقالت: والله ما عرفتك حتى تكلمت . قال قصيدة طويلة منها(42) :

قالت ولم تقـصـد لقيل الخنـا مـهـلاً فقد أبلغت إسماعي(43)
أنكـرته حـيـن تـوســـــمـِتـه والحربُ غولٌ ذاتُ أرجاع(44)
لا نـألـمُ القـتـل ونجـزي بهالأعـداء كـيـل الـصـاعِ بالصاعِ

ولقد سطر لنا الشعر حروب الأوس والخزرج ، ونظرة في جمهرة أشعار العرب نجد أن المُذْهبات السبع لشعراء هاتين القبيليتين كلها قيل في هذه الحروب .
وفي حرب سُمَيْر قال مالك بن العجلان يعتب على قومه من بني الحارث لأنهم رفضوا نصرته غضباً لرده قضاء عمرو بن امرئ القيس ويحرض بني النجار على نصرته(46):

إنّ سمُيراً أرى عـشـيـرتـه قـــد جدبوا دونه وقد أنِفُوا
لكنّ موالِّي قـد بدا لـهـــمُ رأيٌ سوى ما لديّ أو ضعُفوا

ثم يفتخر بقوتهم في الحرب وبعزتهم إذ يقول :

نـحن بنـو الحرب حين تشـتجرُ الـ ـحربُ، إذا ما يهابُها الكشُفُ(47)

مـا قـصــرّ الـمـجـدُ دون محـتـدنـــا بـل لـم يـزل فـي بيوتنا يكفُ(48)
إنّ سـمـيـراً عــبـــدٌ بـغـى بطـــراً وأدركــتـــهُ الـمــنـيـة الـتُّـلَـفُ(49)
ويشير قيس بن الخطيم شاعر الأوس إلى حرب حاطب ، وكذلك حرب بعاث في قصيدة طويلة منها(50) :
دعوت بني عـوف لحقْن دمائهم (51) فلما أَبَوْا سامحتُ في حرب حاطب
ضـربـنـاكـم بالـبـيـض حـتى لأنــــتـمُ أذلُّ من السُّقبان بين الحلائب(52)
ويـوم بـعـاثٍ أسـلـمـتـنـا سـيوفُـنا(53) إلى حـسـبٍ فـي جـذْمِ غسانَ ثاقب
رضـيـــنـا لـعـوفٍ أن تـقـول نـسـاؤهــم ويـهــزأنَ مـنهم: لـيـتـنا لم نحارب
ومما قاله حـسـان بن ثابت الـخـزرجي -رضي الله عـنـه- في هذه الحروب ، ويرد على شاعر الأوس قيس بن الخطيم(4):
فلا تعجلن يا قيسُ واربَــعْ فإنـمــا قـصاراك أنْ تُـلـقـى بكـل مهندِ(55)
فقد لاقت الأوس القتالَ وطـُـــرِّدتْ وأنتَ لدى الكنّاتِ في كل مَطْردِ(56)
فغنِّ لدى الأبيات حُــوراً كـواعـبـاً وحـجّـرْ مـآقـيـكَ الحسان بإثمِدِ(57)
ويقول عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه- ، وهو من الخزرج مفتخراً وذاكراً حرب قومه مع الأوس (في قصيدة من المذهبات وهي الثانية) :
إذا ندعى لسيب أو لجارٍ فنحن الأكثرون بها عديدا
زعـمـتـم أنما نلـتم ملوكاً ونـزعـم أنمـا نـلـنـا عبـيدا
أي أن الأسرى من الأوس هم كالعبيد الأذلة بخلاف الأسرى من الخزرج .
هذه حالة الأوس والخزرج قبل الإســلام ، حــروب وتناحر وانقسام ، وتفاخر ومباهاة ، وضغائن يشترك في إشعالها اليهود ، تتحول بعد الهجرة إلى مدينة طيبة ، ودار الهجرة، إنه الإيمان الذي يصنع في النفوس الأعاجيب ، هو الذي جعل حسان بن ثابت -رضي الله عنه- يقول قبل فتح مكة(58):
وقال الله : قد أرسلتُ عـبداً يقــول الحـقّ إن نفعَ البلاء
شهـدتُ به فـقـوموا صـدقـوه فقـلـتـم لا نـقـومُ ولانـشـــاء
فـإن أبـي ووالـدَه وعـرضـــي لـعِـرض مـحـمـدٍ منكم وقاءُ
وقوله:
هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاكَ الـجــزاء
يخاطب أبا سفيان بن الحارث وبقية قريش ، ويـفـدي الـرســول -عـلـيـه أفـضـل الصلاة والسلام- بنفسه وأهله وعرضه ، لقد ذابت العصبيات التي رأينا نماذج منها في الـقـصـائـد الـسـابـقـة ، عـنـد شـعـراء الأوس والخزرج قبل الإسلام .. ووقف حسان في صف الإسلام والإيمان مع الأوس وقريش وبقية المؤمنين ضد معسكر الشرك وأهله .

الهوامش :

1- العصر الجاهلي : د. شوقي ضيف 58 ، والفروسية في الشعر الجاهلي: د. محمود القيسي 79 .
2- المفضليات ص 184 .
3- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص 286 للحوفي .
4- البداية والنهاية لابن كثير 2/291-293 ، والسيرة النبوية لابن هشام 1/133 .
5- البداية والنهاية لابن كثير 2/209 ، وانظر بلوغ الأرب 1/277 .
6- الشعر الجاهلي ص 46 د. يحيى الجبوري .
7- اختبارات الأعلم ص 246 ، والفجور : الفساد ، المجن: الترس ، الخميس : الجيش ، النسار : يوم كانت فيه وقعة ، حجر: والله امرئ القيس .
8- المفضليات رقم 10 ص 55 - 59 ، أماثلهم: خيارهم ، عدولاً : جوراً لأنهم عدلوا عن الحق ، خزي الحياة : ما يلحقهم من العار إذا خذلوا حلفاءهم ، الطعام الوبيل : غير المستمرأ .
9- المفضليات رقم 12 ص 65 ، كان يوماً مظلماً : بسبب غبار الحرب حتى استبانت الكواكب ، الهام : ج هامة الرأس ، أظلما : بدأونا بالظلم على اعزازنا إياهم .
10- الحياة العربية للحوفي ص 290 وما بعدها .
11- ديوان عبيد بن الأبرص ص 4 .
12- المفضليات ص 45 رقم 8 ، لا نريب حليفنا : لا نغدر به ولا تأتيه منا ريبة .
13- مجمع الأمثال : 1/243 .
14- الفهرست لابن النديم .
15- أيام العرب في الجاهلية ، محمد أحمد جاد المولى وصاحباه (المقدمة) .
16- أيام العرب ص 2 - ه ، والكامل لابن الأثير 1/275 .
17- ديوان الأعشى ص 105 - 110 .
18- وفي رواية أخرى : غبراء مظلمة .
19- الكامل في التاريخ 1/285 - 293 ، وأيام العرب في الجاهلية ص 6 - 39 .
20- الهامَرْز : كان على مسلحة كسرى بالسواد ، وهو لقب للقائد عند الفرس ، والأساورة : جمع أسوار وهو الجيد الرمي بالسهام .
21- قافلة كانت تخرج من العراق محملة ، فيها البز والعطر والألطاف ، توصل إلى باذان عامل كسرى في اليمن .
22- الوضين : نطاق عريض منسوج من سيور أو شعر ، وقيل لا يكون إلا من الجلد .
23- ذكره الطبري في الجزء الثاني من تاريخه بصيغة وفد ذُكر بلا سند ولم نعثر على الحديث في كتب الحديث المشهورة .

24- ديوان الأعشى ص 112 ، والأعشى من قيس بن ثعلبة وهم بطن من بطون بكر بن وائل بن ربيعة .
25- الحنو : منعرج الوادي .
26- ديوان الأعشى ص 33 - 34 .
27- قلت : قل الشيء أي غلا .
28- حنو قراقر : موضع قرب الكوفة ، والهامرز : القائد عند الفرس .
29- بنو الأحرار: أي الفرس ، غلب: ج أغلب وهو غليظ العنق كناية عن القوة .
30- الأصمعيات رقم 21 ص 79 .
31- انظر الكامل في التاريخ 1/325 وما بعدها ، وأيام العرب في الجاهلية ص 51 حتى 84 .
32- الأصمعيات ص 152 .
33- بصرى : من أعمال دمشق وهي قصبة حوران .
34- الغموس : الطعنة الواسعة ، الآسي : الطبيب .
35- المفضليات رقم 119 .
36- طحا بك: اتسع بك وذهب كل مذهب .
37- الجون : فرس الحارث بن أبي شمر الغساني .
38- كبشهم : أي ملكهم ورأسهم بعني المنذر .
39- يقال : خبطه بخير أعطاه من غير معرفة بينهما ، الذنوب : الدلو ويقصد الحظ والنصيب .
40- كانت الدائرة على الأوس .
41- أربعون غلاماً من اليهود كانوا رهائن عند الخزرج بسبب الحروب السابقة ولمساعدة يهود الأوس ضد الخزرج .
42- جمهرة أشعار العرب 2/665 ، تحقيق د. محمد على الهاشمي .
43- الخنا : الكلام الفاسد .
44- أي شكت فيه ، حين توسمته : أي تثبتت من معرفته ، والغول ما اغتال الأشياء فذب بها .
45- المعنى : أنه يطيل لبس السلاح ويقل النوم ، والبيضة : خوذة من الحديد ، حصنه: أذهبت شعره ، التهجاع : النوم الخفيف .
46- جمهرة أشعار العرب 2/637 وهي الثالثة من المذهبات .
47- تشتجر : تستوقد ، الكشف : الذين لا ترس معهم .
48- المحتد : الأصل والطبع ، يكف: يسيل ويتقاطر (أي أن المجد ثابت مستهو لا ينقطع) .
49- سمير : قاتل جار مالك .
50- جمهرة أشعار العرب 2/645 ، وهي الرابعة من المذهبات .
51- بنو عوف : من الخزرج ، سامحت : تابعت .

52- السقبان : ج سقب وهو ولد الناقة .
53- مضيء : غير خامل .
54- المصدر السابق 2/621 ، وهي الأولى من المذهبات .
55- اربع: أقم وكف نفسك .
56- الكنات : ج كنّة وهي امرأة الابن أو الأخ .
57- أي دعك مع النساء لاهياً وخذ زينتهن فأنت بهن أشبه .
58- ديوان حسان ص 8 - 9 .

مفهوم السببية عند أهل السنّة (2)

طارق عبد الحليم

كان من أهم وأبرز النتائج التي ترتبت على ردة فعل الأشاعرة تجاه التطرف الاعتزالي في مسائل خلق الأفعال ، والتحسين والتقبيح ، وحدود الإرادة والقدرة الإنسانية إلى جانب المشيئة والإرادة الإلهية ، ما سبق أن ذكرناه في الجزء الأول من المقال عن نفي الأشاعرة للحكمة الإلهية التي تصدر عنها أفعال الله سبحانه .

فالله سبحانه - كما قالت الأشاعرة - "لا يفعل شيئاً لشيء ، ولا يأمر لحكمة ، ولا جعل شيئاً سبباً لغيره ، وما ثم إلا مشيئة محضة ، وقدرة ترجح مثلاً على مثل ، بلا سبب ولا علة. كان ذلك ردًّا على الآراء الاعتزالية التي أكدت على الحكمة الإلهية و"أوجبت" على الله -سبحانه- فعل الأصلح لعباده، فأهدرت عموم المشيئة لصالح الحكمة، وأهدرت الأشاعرة الحكمة الإلهية لأجل عموم المشيئة ، كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية(1) .

وقد ترتب على ذلك النظر الأشعري في الحكمة والتعليل، أمران هامان كان لهما أكبر الأثر في صياغة العقلية الإسلامية خلال القرون اللاحقة .

أولهما: الفصل بين العلة الشرعية والعلة العقلية (2):

ذلك أن الكثير من أحكام الشرع قد ورد معللاً بعلل منصوص عليها.، كما في قوله تعالى: ((مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)) [المائدة 32]، وقوله تعالى: ((فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً)) [الحاقة10] وفي الحديث عن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته منه شيء، فلما كان في العام المقبل قالوا: يارسول الله نفعل كما فعلنا في العام الماضي؟ قال: "كلوا وأطعموا وادخروا، فإن ذلك العام كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا فيها" متفق عليه (3).

" ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع"(4).
ولذلك، كان من الصعب على الأشاعرة - بل على الظاهرية - إنكار العلة بإطلاق، فساروا في ذلك كل حسب ما أدته إليه مقدماته:
- فالظاهرية: أقروا بالعلل المنصوصة وأنكروا العلل المستنبطة بطرق استنباط العلة المعتمدة في مناهج أهل السنة - والتي تنبنى على مفاهيم شرعية - إعمالاً لمبدئهم في الأخذ بظواهر النصوص .
- والمعتزلة: قبلوا التعليل في الشرع والعقل جميعاً ، وأطــلـقـوه إطلاقاً عاماً ليس منه فكان إعمالاً لمبدئهم في عموم الحكمة الإلهية ، وإهدارهم لمبدأ عموم المشيئة الإلهية .
- والأشاعرة: أقروا بالعلة الشرعية المنصوصة والمستنبطة ، على أنها ليست سبباً أو علة للفعل ، بل على أنها " باعث" على الفعل ، وأمارة دالة عليه وإن لم يكن سبب له (5) ، وأنكروا العلل العقلية مطلقاً إعمالاً لمبدئهم في عموم الفعل مطلقاً - إلا بذلك الكسب الذي لا يسمن ولا يغني من جوع - من جهة ولعموم الحكمة الإلهية من جهة أخرى .
وتد تصور بعض الكتاب المحدثين أن الأشاعرة قد انطلقوا في تصورهم ذاك من الموقف القرآني الذي توهموه أنه " في مواضع عديدة منه ينكر العلة ويتحدى الأسباب ، وينكر الصعود إليها"(6) (كذا) ! إلا أننا نرى أن ذلك التصور لا يتوافق مع ما رأيناه من نشأة تلك المباحث أصلاً ، وما أثر في الفكر الأشعري حتى وصل به الى تلك النتائج المؤسفة .. إذ إن القرآن كله - على عكس قول القائل - دال على إثبات الحكمة والسبب إثباتاً لا ينكره أحد من المنصفين .

الثاني: تفسير العلل والأسباب بحكم " العادة ":

ذلك أن التلازم الذي لا تنكره الفطر السوية بين السبب ونتيجته لا يمكن جحده جحداً ظاهراً إلا من أخرق أو سوفسطائي مشكك . . أما الأشاعرة فقد ذهبوا في إنكار تلك العلاقة بين السبب ونتيجته - أو العلة ومعلولها - إلى أن ذلك التتابع بينهما إنما هو من تصورنا لاغير ، فهو " تلازم في الحدوث" وليس تلازماً ناشئاً عن الارتباط بينهما وبمعنى آخر هو إلف العادة التي نشأنا عليها أن نرى النار تشتعل في الورق ثم نرى الورق يحترق ، فالاحتراق ليس ناشئاً عن النار ، بل هو حادث عند حدوثها فقط (كذا) !!. والنار لا دخل لها بالإحراق إنما الله -سبحانه- يخلق الاشتعال ، ويخلق عنده الاحتراق كلٌ منفصل عن الآخر ، لا الاحتراق ناشيء عن النار ، ولا النار تسبب الاحتراق ! وهكذا في سائر الظواهر الطبيعية كتلازم الشرب والري ، والأكل والشبع .
وقد كانت أدلة الأشاعرة على ذلك الأمر ، أغرب من أقوالهم ذاتها ، إذ قالوا: أليس الله -سبحانه- يقدر على خلق الشبع في الإنسان ، دون أن يأكل وأن

يحرق إنساناً دون أن تشتعل فيه نار ، أو أن يشعل ناراً دون أن يحرق بها الناس .. ألم يحدث ذلك مع إبراهيم -عليه السلام-!؟ فهذا يعني - بالضرورة عندهم - أنه لاسبب ولا علة للحوادث بل هو مجرد التلازم وإلف العادة ، وإثبات المشيئة الإلهية والقدرة الربانية العامة المرافقة للخلق في كل صغيرة وكبيرة على حساب الحكمة الإلهية التي شاءت فعل الأحكم والأصلح ، لكمال الذات الإلهية التي يناسبها فعل الأحكم والأصلح عن عدم فعله أو عن الفعل غير المعلل ابتداء .

وقد نقل علي النشار قول الغزالي في تهافت الفلاسفة - مؤيداً له - حيث قال: " واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى ترسخ في أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه" .

" إن من المسلم به أن النار خلقت بحيث إذا تلاقت مع قطنتين متماثلتين أحرقتهما ولم تفرق بينهما ، طالما كانتا متماثلتين من جميع الوجوه ، ولكن مع هذا يجوز أن يلقى شخص في النار فلا يحترق ، فقد تتغير صفة النار أو تتغير صفة الشخص " (7) .

والملاحظ أنه قوله ، فقد تتغير صفة النار أو صفة الشخص ، رجوع عن مبدئه كلية ، إذ في هذا إقرار بأن صفة الشخص الأساسية هي أن يحترق بالنار وأن صفة النار الأساسية أنها تحرق الشخص ، ولا يعني هذا إطلاقاً أن النار أساساً لم تخلق لتحرق ، أو الناس لا يحترقون ابتداءً بالنار ، كما أنه لا يعني أن الله -سبحانه- لم يخلق فعل الاحتراق في الشخص ، أو فعل الإحراق في النار رغم أن ذلك ممكن عند إرادة الله -سبحانه- أن يحدث معجزة أو كرامة ولكن ذلك يكون خرقاً مقصوداً مؤقتاً للنواميس العادية التي جبلت عليها المخلوقات . .

ونحن نرى أن النشار قد اندفع وراء أشعريته بعيداً عن النهج القويم في النظر والاستدلال الذي تناوله بالبحث والدرس في" مناهج بحثه " التي استقصاها عند مفكري المسلمين !!

ومما لاشك فيه أن إهدار مفهوم النتائج عن أسبابها أدى إلى أبشع النتائج وأخطرها على العقلية الإسلامية خلال القرون الماضية ، لما في ذلك من إهدار عام لقيمة العلم التجريبي بل والنظري معاً ، كما سنرى في حديثنا عن الآثار التي ترتبت على انتشار مثل تلك المفاهيم .

الصوفية والأسباب:

لم يكن الأشاعرة أو المعتزلة وحدهما الذين خاضوا معترك الحديث في الأسباب والعلل ، أو الكلام في القدر وحدود الإرادة الإنسانية وحريتها وما ترتب على ذلك من قضايا ، بل شاركت في ذلك فرقة واكب ظهور أوائل روادها حوالي منتصف القرن الأول الهجري ، ثم تطورت مفاهيمها بعد ذلك - من منتصف القرن الثاني -إلى أن وصلت حد الغلو والتطرف - بل في بعض آرائها التي دعا إليها نفر من كبار مشايخها - إلى حد الكفر والمروق ونعني بها

فرقة الصوفية ، التي أدلت بدلوها في موضوع العلة والسبب بما يتناسب مع الخط العام لفكرها ومنهاجها ، فكانت تلك الآراء من أهم العوامل التي أدت إلى إهدار قيمة الأخذ بالأسباب في المجتمع الإسلامي ، وبالتالي من عوامل الهدم التي عملت في جنبات الحياة الإسلامية حتى أدت بها إلى الانحطاط والركود والتخلف .
تناولت الصوفية مفهوم السبب من منطلق تصوراتها لثلاثة أمور:
أولاً: مفهوم القدر .
ثانياً: مفهوم التوكل .
ثالثاً: مفهوم الركود والولاية .

أولاً: القضاء والقدر عند الصوفية:

اسـتـغـرق الصوفية في معاني توحيد الربوبية ، والتأمل في الأسماء والصفات حتى شذوا في تلك المعاني، وخرجوا بها عن المقصود منها كتعبير عن كمال الله سبحانه وجوانب عظمته وقـدرتـه وسـائـر صفاته، وما تضفـيه تلك المعاني على المـسـلـم من مشاعر المحبة والتوكل والخضوع وتمام الاطمئنان لحكمة الله وقدرته -سبحانه- وهو ما يستلزمه توحيد الألوهية والقيام بحق العبادة على وجهها الأكمل في كافة جنبات الحياة الإنسانية .
كان لذلك الاستغراق في معانى توحيد الربوبية والشطط والغلو في مفاهيمها ومراميها ، أن خلطت الصوفية في مسألة القدر الإلهي وحدود الإرادة الإنسانية التي أتاحها الله للإنسان ليجعله بها مكلفاً ، ومعرضاً للثواب والعقاب، ولم يميزوا بين إرادة الله النافذة التي لا يقع شيء في الكون مخالفاً لها ، وبين إرادته التي بيّنها في أمره ونهيه ، حسب ما يحبه ويرضاه، أو يكرهه ويأباه، فأخذوا بقول الجبرية في أن الإنسان كالريشة في مهب الريح، مسيّر بإرادة الله تعالى دون إرادة منه أو استطاعة ، والمؤمن الحق - عندهم - هو من يشهد هذه الحقيقة ، ويرى قدر الله النافذ فيه وفي الناس حين يفعلون الخير أو يأتون الشر ، بل تطرف بعضهم فذهب إلى أن الكافر حين يكفر فهو يسير علي القدر الإلهي السابق ، وهو مطيع لله بكفره !! والكوارث والمجاعات والمصائب والمظالم التي تصيب الناس ، لا داعي للتخلص منها أو إزالتها ، والاستسلام لها هو عين الاستسلام لقدر الله النافذ والخضوع لمشيئته ، وهو قمة الإيمان والتوحيد ، ولا يخفي ما في هذا التصور من ابتعاد عن الله ، وتهديد للوجود الإسلامي أصلاً .

ثانياً: الصوفية ومفهوم الكرامة:

كان لإلغاء دور العقل في الحياة الإنسانية- بما زعموه من أن تربية الروح هي مقصودهم الأول والأوحد - أثر واسع في التعلق بالكثير من الخرافات والخروج بالعديد من الظواهر الدنيوية أو الشرعية عن حدودها المعلومة والصحيحة ، استنامة للأحلام التي يهيم فيها "العاشقون" المتدرجون في مراتب "الشوق"

و"الدهشة" و"الانبهار" وما إلى ذلك من مسالك لا يدركها إلا السالك !! ومن تلك الظواهر ظاهرة الكرامة التي يختص الله -سبحانه- بها بـعـضـاً من عـبـاده الأتـقـيـاء الأولـياء على الحقيقة، فيجري على أيديهم ما يخرق العادة الـجـاريـة والـعـلـل الـسـائـرة إكـرامـاً لهم، وتثبيتاً لإيمان بعض من يحتاج إيمانه إلى ذلك التثبيت ، وإظهاراً لعموم القدرة الإلهية التي خلقت النواميس ، والتي تقدر على خرقها في أي وقت شاءت .
والصوفية -ولله الحمد من قبل ومن بعد - أولياؤهم عديدون ، ودرجة الولاية تنال عندهم بلبس الخرق والمرقعات، والسلاسل والرقص في الحضرات، وحفظ الأوراد المبتدعة والإتيان بالأفعال الشاذة .. والكرامة متاحة للعديد منهم بمناسبة وبدون مناسبة ، بحق أو بباطل ، لوليّ أو دعيّ طالما هو سائر على دربهم ذاك .
هذا يخطو خطوة فينتقل من الشام إلى الكعبة فيزور البيت ويعود إلى مجلسه من ساعته ، وذاك يخرج إلى الصحراء دون عدة أو عتاد فيلاقي الوحش فينفخ فيه فيكون كالقط الأليف وذاك يخرج للحج فإذا به يرى الكعبة قادمة في الطريق فيسألها إلى أين هي ذاهبة (أي الكعبة ؟) فتقول (الكعبة كذلك !) إلى فلانة العابدة لتطوف بي ثم أعود ! ! وهناك إحدى الروايات التي يرددها أهل بعض القرى في صعيد مصر عن عائلة من العائلات التي يتوارث أولادها الولاية عن آبائهم ، وكيف أن أحد أطفال هذه العائلة أوقف قطاراً مندفعاً بيده ليركب فيه !! أي والله يحكيها الكبير المتعلم قبل الغر الجاهل ! وليرجع القارىء - إن شاء- إلى رسالة للقشيري أو إحياء علوم الدين للغزالي أو غير ذلك من الكتب المملوءة بمثل تلك الروايات.
إذن فما حاجتنا للسيارات والطائرات ؟! وما الداعي لاقتناء آلات الحرب أو الدفاع؟! وما الدافع إلى الخروج بحثاً عن الرزق والزاد وعمارة الدنيا ، والبحث عن مكنونات الطبيعة وأسرارها المودعة فيها لصالح المسلمين وإعلاء كلمة الدين .. الأمر أهون من ذلك ، فإنما هي صفقة باليد فإذا التخت ممدودة والموائد معمورة والمسافات قد قصرت ، والأفكار قد اندفعت.. فحسبك أن تلبس الخرقة ، وترقص بالحضرة !!! قل لي بالله عليك - أيها القارىء العزيز - أي إهدار لقيمة اتخاذ الأسباب أكبر من ذلك ؟ وأي محاولة للقضاء على الكيان الإسلامي أبعد أثراً من تلك المحاولة .

ثالثاً: الصوفية والتوكل:

كـان مـن نـتـيـجة ما رأينا من الأفكار الصوفية عن مسائل القدر والكرامات والاستغراق في توحيد الربوبية بـجهـل وابتداع دون النظر إلى ما يستلزمه من حق العبادة ، أن اضطرب لدى الصوفية مفهوم التوكل على الله .. واستحال إلى التواكل والاستنامة والبعد عن العمل واتخاذ السبب، فصحة التوكل - عندهم - لا تكـتـمـل إلا بالـنـظـر إلى مسبب الأسباب -سبحانه- ، وقطعوا

النظر إلى الأسباب ذاتها والانفضاض عنها.. وكلما ترقى المسلم الصوفي في مدارج الطريق كلما ازداد بعداً عن الأخذ بالسبب مطلقاً ، بل إن النظر إلى الأسباب هو تلبيس من الشيطان على أهل التفرقة(8) ، فيجعلهم يعدّدون في المصدر والسبب ، ويرون أن للأفعال أسباباً ظاهرة ناشئة عنها فالري لا يحدث إلا بالشرب مثلاً .. وهو وهم من أهل التفرقة ، وتلبيس عليهم فالري يحدث بالشرب أو بدونه كما في الكرامة ، أو إذا صح التوكل - دون اكتساب لذلك - كما أن فعل الطاعات أو الإقامة عليها ليس نتيجة عمل الشخص بل هي منسوبة لله تعالى، سواء فعله أو الإثابة والعقاب عليه، وإضافة فعل الطاعة للعبد تلبيس على أهل التفرقة! وغير ذلك كثير من الخلط والاضطراب والابتداع الذي كان له ولاشك أكبر الأثر في صياغة تلك العقلية الإسلامية التي يعاني منها الوجود الإسلامي في العصر الحاضر، والتي كانت سبباً مباشراً- ولو كره نفاة الأسباب! - في تلك الأمراض ، والعلل التي يعاني منها المسلمون في هذا العصر.

الهوامش :

1- العلة الشرعية - كما عرفها علماء الأصول في مبحث القياس - هي التي يدور معها الحكم وجوداً وعدماً، أى يوجد عند وجودها، وينعدم عند عدمها، ومثال ذلك: الإسكار علة لتحريم المشروب، فإذا وجد الإسكار عند تناول المشروب (قليله أو كثيره) حرم المشروب ، وإن لم يوجد الإسكار لم يكن المشروب محرماً .

والعلة إما منصوص عليها ، كما في قوله - صلى الله عليه وسلم - : " لأجل الدافة" فبيّن علّة تحريم أكل لحوم الأضاحي في ذلك العام لسبب ورود الدافة حول المدينة، أو مستنبط بطرق الاستنباط التي عدّدها الشوكاني أحد عشر مسلكاّ، كما أن لها أوصافاً يجب أن تتحقق فيها لكي تكون علة مستنبطة للحكم ، وقد عددها الشوكاني كذلك أربعة وعشرين وصفاً . إرشاد الفحول 207 - 222 .

أما العلة العقلية فالمقصود بها السبب الذي تنشأ عنه النتيجة في حكم العادة سواء في المجال النظري، كما يقال: إن جمع المتفرقات علة في حدوث المركب، أو المجال التجريبي كما في الظواهر الطبيعية عامة كما يقال النار علة الاحراق أو الأكل علة الشبع، وكلاهما يطلق عليه علة عقلية .

2 - شفاء العليل لابن القيم /189 .

4 - إرشاد الفحول للشوكاني /207 .

5 - مناهج البحث عند مفكري الإسلام لعلي سامي النشار /124 .

6 - 7 - تهافت الفلاسفة للغزالي /67 .

8 - الذين هم أهل السنة ! والحق أن بعضهم كصاحب منازل السائرين يزعم أن التلبيس من فعل الله -سبحانه وتعالى- ليضل به أهل التفرقة ، على أصلهم أن الإضلال من الله وليس للعبد به شأن.

مواقف "الملأ" من الدعوة إلى الله

عثمان جمعة ضميرية

عـنـدمـا تـأذّنـت إرادة الله تعالى أن يجعل هذا الإنسان خليفة في هذه الأرض ، وأهبط آدم إليها، زوّده الله تـعالى بكل ما يحتاجه لعمارة هذه الأرض للقيام بأعباء الوظيفة التي خلقه الله تـعـالى من أجـلـهـا، ورسم له منهج حياته ليحقق له السعادة الكاملة ، وليقوم بالقسط والعدل: ((وأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)) [الحديد: 25] .
وبذلك رسم الله تعالى لهذا الإنسان طريق الهداية المستقيم ، فقد خلقه الله تعالى في أحـسن تـقـويم: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين:4] وفطره على التوحيد والإسلام، وأخذ عليه العهد والميثاق ليؤمننَّ بالله ربه: ((فِطْرَتَ اللهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)) [الروم: 30].
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما من مولود إلا يـولـد على الـفـطـرة، فـأبـواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تُحسّون فيها من جدعاء؟"، ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه ((فِطْرَتَ اللهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ))(1)..
وألهمه - سبحانه - طريق الخير ليسلكه، وعرّفه طريق الشر ليجتنبه:((ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)) [الشمس:7-10].
وبذلك جعل الله تعالى للإنسان هاديًا في داخل نفسه يميز فيه بالإلهام الإلهي بين الأفكار الصالحة والسيئة ، والأعمال الصحيحة والباطلة ، ويهدي الإنسان إلى الطريق السوي في الأفكار والأعمال. ولكن لما كانت هداية الفطرة غير كافية ، وكانت - لاقترانها بكثير من الـقـوى الـفـكـريـة والخـارجـيـة التي تعمل على ترغيب الإنسان في أعمال الشر والمعـصـية، وتزينها في نظره ، وتجذبه إليها جذباً عنيفاً -غير كافية في جعل الإنسان يميّز بين صراط الـحـق المسـتـقـيـم وبين الطرق المعوجّة المتعددة ويسلكه آمنا مطمئنًا ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - أراد الرحمة بالإنسان وتدارك فيه هذا النقص من الخارج ، بأن أرسل إليه رسله ليساعدوا هاديه الباطني بنور العلم والمعرفة ، ويوضحوا له بالآيات البينات ذلك الإلهام الـفـطـري المـبـهـم الـذي يتضاءل نوره في

ظلمات الجهل وهجمات القوى الضالة في داخل النفس البشرية وخارجها (2) .

ومن رحمة الله - سبحانه - بـعـباده أنـه لا يحاسـبهم بمقـتـضى هذه الفطرة العامة وإنما يحاسبهم بعد إرسال الرسل:
((رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)) [النساء: 165] . ((ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً))[الإسراء:15] وبذلك تنقطع حجة أولئك الذين يريدون الاعتذار عن شركهم أو عدم التزامهم بدين الله تعالى ومنهجه :((أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ (173) وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ولَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) [الأعراف:172-174] .

أعلام الدعوة إلى الله :

وتتابعت رسل الله تعالى إلى البشرية تدعوها إلى دين الله ومنهجه ، وتجعلها على الجادة من الطريق:((ثُـمَّ أَرْسَـلْـنَـا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ)) [المؤمنون:44] وتضافرت جهود الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، على الدعوة إلى دين الله الذي لا يقبل من الناس سواه ، وحملوا كلهم راية التوحيد ، وهـتـفـوا جـمـيـعاً بـقـومـهـم: ((يَا قَـوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ)) [الأعراف :الآيات 59، 65، 73، 85] .
وقد قرر الله هذه الحقيقة قاعدة عامة في دعوة كل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ، بعد أن ذكرها على لسان كل منهم (3) ، فقال: ((ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)) [الأنبياء: 25] ((ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)) [النحل : 36]

طبيعة دعوة الرسل وآثارها:

وهذه الدعوة التي جاء بها رسل الله تعالى هي دعوة إلى توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة بكل أنواعها، لله الواحد الأحد، وهي تنديد بالكفر والشرك وأهلهما ، ودعوة إلى اجتناب الأوثان والطواغيت، مهما تعددت أشكالها وألوانها وصورها، ودعوة إلى إسـقـاط الأقـنـعـة الـزائـفـة الـتي يـتستر وراءها أولئك الذين يتسلطون على رقاب العباد وأموالهم، ويزعمون لأنفسهم حق السيادة عليهم ، وحق التشريع لهم والطاعة والاتباع .
وإن هذه العقيدة ، وهذا الإيمان بالله -سبحانه- وبأنه هو وحده الإله الحق الذي ينبغي أن يعبد وأن يطاع وأن يكون له الأمر والنهي ، لأنه وحده هو الخالق: ((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ))[يوسف:40] ((أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ)) [الأعراف:54].

وأن كل ما عداه ، من الآلهة التي يعلق الناس عليها آمالهم ويعكفون حـولـهـا، إنـمـا هو زيف وباطل ، وأن الله -سبحانه وتعالى- هو مالك الملك المتصرف بكل شيء: ((قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [آل عمران:26] .
وأنه هو وحده القادر الرازق المحيي المميت، مقدّر الآجال، وإليه المرجع والمصير، وأن ما عداه، مما يدعو الناس من آلهة وما يخافون في الأرض من دون الله إنـمـا هو زيف وضلال وغثاء (4): ((لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ)) [سبأ: 22] .
هذه الـعـقـيـدة الـواضـحـة الناصعة، تكشف الحقيقة، وتزيل الغشاوة عن العيون، وتهتك الأقنعة التي يختبئ وراءها الطغاة، وتقوّض عقائدهم، وتزلزل عروشهم، وتكشف زيفهم، فهي خطر عظيم يهدد سيادتهم ، ويقلق أمنهم وراحتهم ، ويقلب الأوضاع التي تعارفوا عليها ، والقيم والتقاليد التي توارثوها عن آبائهم وأسلافهم جيلاً بعد جيل ، وتنزع منهم السلطان الذي يتسلطون به على رقاب العباد فيذلونهم ويحتقرونهم ، ويتسلطون به على أرزاقهم وأموالهم ، فيأكلون بالباطل والإثم والعدوان.
هـذه الـعـقـيـدة تـجـعـل الـنـاس كـلـهـم سواسية أمام الله تعالى، لا يتمايزون بالأنساب ولا يـتـخـايـلـون بـالألـقـاب .. الـسـادة والـعبيد سواء .. لا يتفاضلون إلا بالإيمان والتقوى ولا يتمايزون إلا بالسبق والبلاء ، فالكل خلقوا من أصل واحد ويعبدون رباً واحدًا:
((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً)) [النساء:1] .
((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) [الحجرات: 13] .

من الواقع التاريخي:

ولقد عبر عن تلك المعاني كلها ربعي بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة -رضي الله عنهم، وظهر في كلامهم لرستم قائد الفرس أثر هذه الدعوة في النفوس:
قال رستم لربعي بن عامر رضي الله عنه: ما جاء بكم ؟.
قال: الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نُفْضي إلى موعود الله .

قال : وما موعود الله ؟
قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى ، والظفر لمن بقي .
ولما سأله رستم ، بعد نقاش: هل أنت سيد قومك ؟.
قال: لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم .
.. وفي اليوم الثاني بعثوا اليهم حذيفة بن محصن -رضي الله عنه- ، فجاء حتى وقف على بساط رستم ، فقال له: ما جاء بكم ؟.
قال : إن الله -عز وجل- منّ علينا بدينه وأرانا آياته ، حتى عرفناه ، وكنا له منكرين ، ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأيها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء (الجزية) ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة. .
فلما كان من الغد أرسل رستم إلى المسلمين: ابعثوا لنا رجلاً، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة، فأقبل المغيرة والقوم في زيهم ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبُسُطُهم على غلوة (قدر رجعة السهم) لا يصل إلى صاحبهم ، حتى يمشي غلوة . ، وأقبل المغيرة حتى جلس على سريره ووسادته فوثبوا عليه وأنزلوه وضربوه ضرباً ليس شديداً، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسْفَه منكم! إنّا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقـيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مـغـلوبون، وأن مُلكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول .
فـقـال السِّـفْـلَـة: صدق والله العربي، وقال الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبـيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أوّلينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغِّرون أمر هذه الأمة .
ثم تـكـلـم المـغـيـرة فـحمـد الله وأثنى عليه ، ورد على رستم كلامه .. ثم ذكر مثل الكلام الأول(6).
تلكم هي كلمات ربعي وإخوانه، رضي الله عنهم، صدى على طريق الدعوة إلى الله، تـنـير الطريق أمام الناس وتفتح عقولهم وقلوبهم ، فلا عجب أن ينزع إليها العبيد وعامة الناس في فارس من بطانة رستم ، وأن يخافها دهاقين فارس ، أي الرؤوساء فيها المتسلطون على أولئك العبيد !

الناس أمام الدعوة أصناف:

ولو رحت تستقرىء أخبار الرسل ودعواتهم ، وتتقص تاريخ حركات الإصلاح ، لوجدت أن مواقف الناس من الدعوة لا تخرج عن ثلاثة مواقف لثلاثة أصناف من الناس:

أ- الصنف الأول: وهم أولئك الذين طهّر الله تعالى نفوسهم من الكبر والغرور ، وفتح قلوبهم للهدى والخير فعقلوا ذلك عن الله ورسوله ، وأبصروا أمام الطريق ، وآمنوا بالحق المبين وعاشوا من أجله ، وضحوا في سبيله بالنفس والنفيس ، فإن الحق قد ملك عليهم نفوسهم ، فهم لا يتحركون إلا بدافع الحق الذي آمنوا به وعاشوا به وله وهذا الإيمان هو النور الذي يضيء لهم الطريق في الحياة فيسلكونه آمنين مطمئنين ، ((الَذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ)) [الأنعام: 182] .
وهؤلاء هم الذين تولاهم الله برعايته وبصرهم الطريق ، فأخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان:
((اللَّهُ ولِيُّ الَذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ)) [البقرة: 257] . فلا عجب بعد هذه العناية والرعاية من الله تعالى لما رأى منهم الاستعداد للإيمان أن يكونوا من السابـقـين الذين يسارعون إلى الإيمان بدعوات الرسل ويناصرونها، وأولئك هم المقربون، فضلاً من الله ونعمة: ((والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)) [الواقعة: 10-12].
وقد نوه الله تعالى بمواقـف أولئـك المصدقين المسارعين إلى الإيمان السابقين إليه ، فقال عن الذين آمنوا بصالح -عليه الصلاة والسلام-:
((قَـالَ المَـلأُ الَـذِينَ اسْـتَـكْـبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)) [الأعراف: 75] .
وقال عن لوط عندما سارع إلى تصديق أبي الأنبياء والإيمان به ، عليهما السلام:
((فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وقَالَ إنِّي مُهَاجِرٌ إلَى رَبِّي إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)) [العنكبوت: 26]
وقال عن الحواريين الذين آمنوا بعيسى -عليه السلام-، وأسلموا معه لله رب العالمين:
((وإذْ أَوْحَيْتُ إلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)) [المائدة:111]، ((كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إلَى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وكَفَرَت طَّائِفَةٌ)) [الصف: 14]، وقد امتدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - مواقف السابقين إلى دعوته ، المسارعين إلى الإيمان به ، فقال مثلاً عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-: "يا أيها الناس إن الله بعثني إليكم ، فقلتم: كذبت ، وقال أبو بكر: صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي"(7).

وعن الحسن قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أنا سابق العرب ، وسلمان سابق فارس ، وصهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة" (8) .

ب - الصنف الثاني: أولئك الذين امتلأت نفوسهم كبراً وغروراً ، ومردوا على الشقاق ، واستعلوا في الأرض بغير الحق .. أولئك هم الذين ماتت ضمائرهم ، وقست قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، فأشربوا الكفر والعناد بطغيانهم ، فوقفوا بكل عناد يعارضون دعوات الرسل والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، ويحاربونها بكل وسيلة يمكن أن تتفتق عنها عقولهم الشيطانية الماكرة ، ولن تستطيع نفوسهم هذه أن تصغي إلى كلمة الحق المجردة ، ولن يسمحوا لها أن تطرق آذانهم ، وقوم نوح مثلٌ صارخ على ذلك: ((وإنِّي كُـلَّـمَـا دَعَـوْتُـهُـمْ لِتَغْـفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً)) [نوح: 7]

بل إنهم يصرفون الآخرين عن الدعوة، وعن الحق ، لئلا ينعموا به: ((وقَالَ الَذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ والْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)) [فصلت: 26] .

إنهم يتآمرون ويمكرون ويكيدون:

((ومَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سُوَاعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً)) [نوح:22 - 23] ، ((إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وأَكِيدُ كَيْداً)) [الطارق:15-16] .

أولئك هم الملأ الذين يتصدون لدعوات الرسل، عليهم الصلاة والسلام بالإعراض والتكذيب والحرب المـشـبـوبـة الـمـتنوعة الوسائل والأهداف، هم ومن يتبعهم من الرعاع: ((يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ)) [الصف:8] .

ج - الصنف الثالث:

وهـم الـذين لـم يكن لهم إيمان الصنف الأول وأخلاقه العالية ونفسه الطيبة التي تدفع إلى الإيمان، ولم يكن لهم جرأة الصنف الثاني المكذبين للدعوات، ولكنهم شر منه، يشتركون معهم في "خبث النفس وفساد الفطرة والطوية والحنق على الرسل، ويمتازون عنهم بالجبن والخور وضعف القلب ، فلا يستطيعون أن يصارحوا بأنهم العدو اللدود ، ولا أن يظهروا أمام المؤمنين بذلك المظهر فيضطرهم ضعف عقيدتهم وفقدانهم للجرأة أن يداروا ويواربوا ، فيكونون بين الصديق والعدو والمناصر والمحارب ، إذا رأوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان ، وإذا لقوا الكافرين قالوا لهم: إنّا معكم " (9) .

وأولئك هم المنافقون الذين قال الله تعالى عنهم:

((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لا

تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)) [البقرة: 8 - 16]

الصنف الثاني فريقان:

وإذا عدنا إلى الصنف الثاني الذي يكذب بدعوة الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، ويناصبها العداء نجد أنه ينقسم إلى فريقين:

أ - السادة والأشراف أو الملأ من القوم .

ب -الأتباع أو الضعفاء الذين يتبعون الملأ المستكبرين .

كلاهما يكذب بدعوة الرسول ، ويصد عنها ويعرض ، ولكن الذي يأخذ زمام المبادرة ويحمل راية التكذيب والعصيان ويلوحون بها للناس لينضموا إليهم ، هم الملأ والسادة . أما الأتباع والضعفاء، فإنهم ينقادون لهم ويسيرون في القطيع ، يهتفون باسم السادة ويصفقون لهم ، ويؤمنون على كلماتهم ، ويطيعونهم فيما يأمرون ، ويصدقونهم فيما يخبرون ويفترون، ويؤمنون بما يزيفون لهم ويزورون، فإنهم اعتادوا على الذل والخنوع، فلن يجرؤوا على رفع رؤوسهم عالية أمام السادة والكبراء ، ولن يرتفعوا بنفوسهم إلى آفاق عالية لأنهم اعتادوا العيش في السفح، واستمرؤوا الذل والعبودية الخانعة ، وكرهوا الحرية .

ولكنهم لا يلبثون طال الوقت أم قصر أن يتحسسوا الحقيقة ، ويتعرفوا السبيل ، ويشعروا بأنهم غارقون في عبودية ذليلة، ينبغي أن يرتفعوا عنها، ليكونوا عبيداً لله تعالي وحده، وهذه العبودية الكريمة لله وحده تبعث في نفوسهم العزة والكرامة وعندئذ يتحررون من جديد، بل يولدون من جديد، ويشعرون بإنسانيتهم من جديد، فإن دعوة الإسلام تحررهم من كل عبودية لغير الله عندما تجعلهم عبيداً لله تعالى وحده .

وبذلك يستعلون على أولئك الملأ والطواغيت ، ويهزؤون بكل جبروتهم ومتاعهم المادي وسلطانهم ووعيدهم وتهديدهم (10) .

وإن موقفاً رائعاً كهذا الموقف ، وقفه السحرة من فرعون وملئه عندما لامس الإيمان شغاف قلوبهم ، وصاغهم صياغة جديدة ، لما رأوا البينات من ربهم ، وهم أنفسهم الذين كانوا قبل قليل يطلبون من فرعون - بكل ذلة وطمع - أن يجعل لهم شيئاً من الأجر والمال إن كانوا هم الغالبين لموسى وهارون !

وفرعون يمتنُّ عليهم فيعدهم بذلك ، ويزيد تفضلاً عليهم ومنة ، فيعدهم أيضاً بالقرب منه ، كأن يجعلهم من حاشيته وبطانته ومستشاريه الخاصين !! ولو كان عنده إذاعة وتلفزيون وصحف ومجلات ، كما يمتلك ذلك طغاة

الـعصر، لكانوا أول من يظهر على شاشة التلفزيون بجانب فرعون وهـامـان، أما الإذاعة فتخصص الـسـاعـات الـطـوال لـتـبـث عنهم ولهم الأحاديث من زخرف القول ، ولظهرت الصحف والمجلات محلاة بصـورهـم المـلـونـة، ولـتـسـابـق الصحفيون لإجراء المقابلات والأحاديث الصحفية مع أولئك الأبطال، الذين غدوا من أركان الدولة، ولهم الفضل في تثبيت كرسي الحكم لفرعون .....!

ولكن ذلك كله لم يحدث، فإرادة الله تعالى وقدره شاءت غير ذلك، فتغيرت الصورة كلها، وتغيرت النفوس ، واختلف الموقف ووقع ما لم يكن بالحسبان ، وانقضت كلمات المؤمنين -لما آمنوا- كالصاعقة على رأس فرعون . ويحكي الله تعالى لنا الموقف في كتابه الكريم ، فيقول:

((وجَــاءَ السَّحَرَةُ فِـرْعَـوْنَ قَالُوا إنَّ لَـنَـا لأَجْراً إن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وإنَّكُمْ لَمِنَ المُقَـرَّبِـيـنَ * قَالُوا يَا مُـوسَـى إمَّا أَن تُلْقِيَ وإمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ وجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وأَوْحَيْنَا إلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإذَا هِيَ تَـلْـقَـفُ مَا يَأْفِـكُـونَ * فَوَقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَـبْـلَ أَنْ آذَنَ لَـكُـمْ إنَّ هَـذَا لَمَكْـرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * ومَا تَنقِمُ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)) [الأعراف:113 -126]

((قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والَّذِي فَـطَـرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ومَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللَّهُ خَيْرٌ وأَبْقَى * إنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا ولا يَحْيَى * ومَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى)) [طه:72 -75] .

ذاك هو شأن العامة والأتباع أو الضعفاء .. ولكن ما هو شأن الملأ ؟. هذا ما نريد أن نقـف عنده وقفة متأنية متأملة ، نعود فيها إلى كتاب الله الكريم وسنة نبيه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، وسيرته العطرة، وسيرة الأنبياء السابقين ، لنتبين معالم شخصية هؤلاء "الملأ" الذين أكثر القرآن الكريم من ذكرهم وبين مواقفهم وأساليبهم المتنوعة التي يحاربون بها كلمة الحق ودعوة السماء على مدار الـتـاريـخ ، ثم نلتفت إلى الحاضر لنرى هل كانت مـواقــف المــلأ تـلـك فـلـتـة عـابـرة أو أمـراً طـارئاً، أم أن الأمر سنة إلهية ومنهج ثابت في الـدعـوات؟ وعـنـدئـذ يـنـبـغي للـعـاملين في حقل الدعوة ألا يغيب ذلك عن بالهم، وأن يعرفوا: أن الملأ هم الملأ.. في كل زمان وفي كل مكان وأمام كل دعوة .. يقفون الموقف ذاته.

الهوامش :

1- أخرجه البخاري في الجنائز ، فتح الباري3/219، 246 ، مسلم في القدر 4/2047 برقم (2658) ، والحديث أخرجه أيضاً أبو داود في السنة ، والترمذي في القدر ، ومالك في الجنائز وأحمد في المسند 2/315، 346 ، وانظر شرح السنة للبغوي: 1/154 - 162 ، درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وما كتبه المحقق حول الحديث:8/361-366.

2 - الحضارة الإسلامية لأبي الأعلى المودودي ص167-168 ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية 4 - 13، في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله 6/806 - 812 ، دار الشروق.

3 - انظر بالتفصيل بحثاً لنا بعنوان "إن الدين عند الله الإسلام "، في مجلة البحوث الإسلامية ، العدد 15 ، تصدر عن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، بالرياض .

4 - اقرأ - إن شئت - طريق الدعوة في ظلال القرآن ، لأحمد فايز 2/79 وما بعدها .

5 - السِّفلَة من الناس - بالكسر والسكون وفتح الأول وكسر الثاني : أسافلهم وغوغائهم" المعجم الوسيط 1 / 434 .

6 - انظر تاريخ الطبري 3/ 520 - 525 بتحقيق محمد بن الفضل إبراهيم ، البداية والنهاية لابن كثير 7/39 - 40 .

7 - أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة1/240 ، برقم 297 ، تحقيق وصي الله عباس والبخاري في كتاب فضائل الصحابة6/18 برقم 3661 من فتح الباري .

8- فضائل الصحابة2/909، برقم1737 للإمام أحمد بن حنبل ، والطبراني عن أنس وأبي أمامة وإسناده حسن . مجمع الزوائد للهيثمي9/305 .

9- انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ، لمحمد أحمد العدوي ، ص 25 .

10- انظر ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية حول هذا المعنى في العبودية مع مقدمة المحقـق الفاضل الأستاذ عبد الرحمن الباني ، واقرأ فصل: نقلة بعيدة ، استعلاء الإيمان في معالم في الطريق لسيد قطب -رحمه الله- .

تمت بحمد الله